

أحمد الزلوعى

(مجموعه قصصية)



روافد للنشر والتوزيع

أحمد الزلُوعى

مَمْلكةُ الأَصْواتِ البَعيدة

مجموعة قصصية

الزلوعي، أحمد

مملكة الأصوات البعيدة/ أحمد الزلوعي.

القاهرة: روافد للنشر والتوزيع، ط1 / 2016.

93 ص ؛ 21 سم

1- قصص

2- العنوان

أ. المؤلف

رقم التصنيف: 813،01

رقم الإيداع: 26670/ 2015

ISBN: 978 - 977 - 751 - 181 - 0



روافد للنشر والتوزيع

القاهرة – ج م ع

+2 0122-2235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: هاني سلامة

فوتوغرافيا: شريف فوزي

إهــداء

إلى جدى فى سماوات الرحمة

لعل الملائكة تسعد بحكاياك كما كنت أسعد..

طاقة القدر

يا هيا براهيا أدوناى أصباؤت آل شداى، يا حيُّ يا قيوم، يا أرحمَ الراحمين، يا ودودُ يا ودودُ، يا ذا العرشِ المجيد يا فعالٌ لما يريد، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين..

كان إبراهيمُ المغربي يتمتم بها جميعا عقب كلّ صلاةٍ وفي جوف الليالي الحالكة اعتقادا منه أن من بينها لابد اسم اللهِ الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى .

أتمّ حفظَ القرآنِ كاملا قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، وتتلمذ على يد وليّ الله حميش قبل أن يرغمه أبوه على احتراف التجارة، ظل إبراهيمُ موزعا بين الطريقين مترددا لفترة.. طريق المال وتجارة أبيه في الطيوب والبهارات.. طريق ينبغي أن يُعبّد بالجهد والعرق محفوفا بحسابات الربح والخسارة، وطريق الله الذي يمر عبر حضرة سيدي حميش، ويتطلب جهد الغاية في الخلوةِ والانقطاع.. تحت ضغط أبيه سلك إبراهيم طريقَه لكن قلبه ظل معلقا بالآياتِ والأورادِ والدعواتِ المأثوراتِ.. منّى النفس بمعرفة اسم الله الأعظم يوما، أو تجلى طاقة القدر له في ليلةٍ مباركةٍ، أو تلقى الرؤى من الأنبياء والصالحين كما كان حالُ شيخه المبارك. حاول المزجَ بين الطريقين، فإذا كانت التجارةُ تحولُ بينه وبين الخلوة فلا أقل من قيام الليل، ولن يمنعه بيعُ جوزة الطيب والكنجذ والمصطكى والراتينج والحبق والصندل من إكمال تسابيحه المئوية والألفية وأوراده اليومية، تبرمَ أبوه فى البداية من

تمتمته الدائمة وحركة أصابعه المنتظمة على المسبحة الطويلة؛ لكنه لاحظ حدة ذهنه فى الحساب، وتنامي تجارته منذ وقوفه فيها.. لعلها بركة أوراده أو ثقة الناس فيه، ولعلها حدةُ ذهنه التي تجلت في طفولته الباكرة.. لم يهتمْ أبوه بالسبب كثيرا قانعا بالأرباح المتزايدة.

يتذكر إبراهيمُ أيامَه الخوالي برضا، ويترحمُ على أبيه الذي مات راضيا عنه رغم ضيقه بانشغاله عن العمل كثيرا، ويتذكر كيف اختطفت التجارةُ روحَه لسنواتٍ طويلة، واستنفدت شبابه كله فنقصت أوراده، وتقلصت ليالي عبادته، وصار ينسى مسبحته كثيرًا في ركن حانوته العامر.. جني المالَ فوسع حانوته بخان الخليلى، وراجت تجارته حتى صار شاهبندر العطارين.. رُزق بولدين، وابتنى في قلب الجمالية قربَ بابِ الفتوح دارا فسيحة تكللها المشربيات ولها فناءٌ رحب تتوسطه فسقية من الرخام المزخرف فطابت نفسه..

فى أواخر عمرٍ أوشك على الانقضاء انتبه إبراهيم ذات فجر فارق.. لطالما اعتاد النوم العميق بعد أيام العمل الشاقة؛ لكنه تلك الليلة -ومن ثنايا نفسٍ تعجُ بالأشواق والمنى- رأى شيخه حميش واقفا في غرفة خالية ينظر إليه بأسى عاضا على يده، خلفه كوة صغيرة ينسرب منها ضوء شحيح.. حاول إبراهيم مخاطبته لكن صوته لم يسعفه، جاهد حنجرته فلم يفلح.. انتبه بعدها من نومه محسورا.. نهضَ يحوقلُ وهو يتلمس طريقه للوضوء.. كانت رؤيا صادقة كفلقِ الصبح لا شيةَ فيها .. أوشكتَ على الهلاك يا إبراهيم، شيخُك عليك غاضبٌ، وأنت عنه محجوبٌ ، انقطع صوتك فأنت طريدٌ غيرُ

مأذونٍ لك، لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا جنيتَ يا مسكين؟..
توضأ على عجلٍ وهرعِ يستلم القبلة بعينين دامعتين، كان لسانه يتلو الآيات فيما هو غارقٌ فى توبيخ نفسه.. لم تعد تصلى إلا الفرضَ، ولا تصوم إلا الشهرَ، مسبحتك فى يدك تتوالى حباتها بين أصابعك بحكم العادة لا تفقه ما تردد من أذكار.. لم يُكشف لك اسم الله الأعظم، ولم تتجل لك طاقة القدر، ولم يزرك فى منامك الأنبياءُ.. حتى الغرفة الجانبية التي خصصتها فى دارك للخلوةِ تحولت في غفلة منك أو تغافل إلى جزء من مخازن بضاعتك.. ها قد جاءتك الإشارة بالقطيعة فأبشر بالبوار..

طلع صبحُ ذلك اليوم وإبراهيم واقفٌ بين خدمه وعماله يُخلون الغرفة من الشيرج والسنامكى والدارفلفل والدارصينى والاهليلج.. لم يحن آذان الظهر حتى كانت الغرفة قد عادت خلوة نظيفة معبقة ببخور طيب ينفرش نور الشمس على جدارها الأيمن من نافذتها الوحيدة، على الأرض بساطٌ ووسادتان، وعلى الرفِ المنحوتِ في الجدار الأيسر مصحفٌ كبير ومسبحةٌ وقنديل..

ابتدأ إبراهيمُ بقيام الليل واسترجاعِ ما نسي من القرآن وترديدِ الأوراد.. حاول قمع كل صوت للدنيا فى نفسه بصيام بلغ أربعين يوما..

فى البداية قال له الشيطانُ من مكانٍ قصيٍ بداخله

- ستنشغل عن تجارتك فتبور

فقال إبراهيم

- ما ربحت من مال يكفيني بقية عمرى

ثم استدرك

- والرواجُ و البوارُ بيد الله ..

فى أواخر صيامه الأربعيني صار صوت الشيطان يأتيه هسيسا

- ستنشغل عن تجارتك فتبور

فيرد إبراهيم قاطعا

- الرواجُ و البوارُ بيد الله..

بالدموع عبر إبراهيمُ بحرَ الندم إلى مرفأ الرجاء.. قلّ كلامه حتى اكتفى بالكلمة والكلمتين مع خادمه وزوجه وولديه.. صار يتقلبُ في أحوالٍ شتى بغير قصد.. يعيش أياما كعلقة في ظلمات رحم، وأياما كوليد لا يعقل الأشياء، ثم يجد نفسه وحيدا فى تيهٍ لا حد له يسيطر عليه خوفٌ من كل شيء، ثم يعيش زمنا كمن يصعد أعتابا شاهقة ثم بدأت البشريات تترى..

صحا من نومه يوما فوجد نفسه يترنم

قلتُ لها جُودى على بنظرةٍ تَلَذُ بها البلوى وتقوى محبتى

قالت على المحبوب أصبحتَ قادرا وتطلبُ ما تهوى بنفسٍ قوية

عبقت الخلوةُ بروائحَ آسرةٍ تتغير كل يوم.. بحث ابنه الأكبر عرفان عن مصدرها فلم يجد ولم يكن أوان الفل والياسمين؛ أما الأصغر وهدان فلم يكترث للأمر كثيرا.. فقط يلبى نداءات أبيه متثاقلا ثم ينصرف إلى رفاقه.. الآياتُ بدأت تظهر من بواطنها ما لم يكن

ظاهرا.. سفينةُ المساكين تبحرُ عبر فضاء الخلوة، والجدار المتداعى يعاود النهوض، البحارُ تنشق صانعة طرق نجاة، والجبالُ ترتعد وهى تتلقى كلمات الله فيما الأحد عشر كوكبا تلتمع أمامه كوكبا تلو آخر، دخل مقام الخروج.. خروجٌ من بطن حوتٍ، ومن قاع جبٍ، ومن ضيق سجنٍ، ومن دار ظلمٍ حتى كان الخروجُ من ملكوتِ الأرض إلى ملكوت السماء حتى سدرة المنتهى ..

وفى ليلةٍ ليست كباقي الليالي أنهي إبراهيمُ قيامه فأراح ظهرَه إلى الجدار، كان صفاءُ روحِه كاملا.. أحس أنه يسبح وسط ملائكةٍ فى سحابة من سكينة، وإذا بلمعاتٍ متتابعاتٍ أعلى جدار الخلوة قوِيَ وميضُها وهي تتشكل على مهل لتصنع دائرةً من نور عجيب، انعقد لسانه وهو يحملق فيما لا يشك أنه طاقة القدرِ الموعودة.. غمر النورُ ثنايا روحِه فأشرَقت بالرضا، انقطعت عن نفسه كلّ خاطرةٍ، المالُ والذريةُ والصحة وطولُ العمر وحجُ البيت وكل ما أعد من دعاءٍ تلاشى فجأةً في العدم.. استسلم مشدوها يرى فى دائرة النور وجوهَ الأنبياء، ومعارجَ الملائكة، وبحارا تعج بالحور، وطيورا تغنى على بوابات السماء ثم انطوت له أجواز الأفق حتى رأى ما لا عينٌ رأت.. لا يعلم ما قد استغرقته الرؤيا ولا ما حدث له بعدها.. صحا من نومه صباحا بابتسامة طفلٍ منبهرٍ ظلت منطبعة على وجهه حتى آخر يومٍ فى حياته.. نهض بنشوة من شفى من أسقام الدهر في لحظة، وسكينة من ظفر توا باليقين.. حاول استرجاع ما شاهد.. أفلح في استعادة بعض المشاهد لكنه لم يتذكر أكثرها، واستمر لسانه يلهج بالحمد والتهليل.

في الأيام التالية عاد يتساءل هل من الممكن أن تظهر له طاقة القدر مرةً أخرى ، وماذا عساه كان يطلب وليس له في الدنيا من حاجة .. ألم يكن أولى أن يطلب لأولاده الهدايةَ أو الستر.. حكي إبراهيمُ البشارةَ لولديه؛ فأما عرفان ففرح واستبشر بأنها ستكون فاتحة خير وبركة عليهم وعلى ذريتهم، وسيحرص في قابل الأيام على توريث الحكاية إلى أبنائه كما رواها جدهم حرفيا، وأما وهدان فلم يهتم لخرافات الشيخ، وتعجب كيف استطاع هذا الرجل جمعَ ثروةٍ كبيرة وتدبيرَ تجارةٍ واسعة ..

اعتاد عرفان من بعدها إهداءَ الشموع لجيرانه في الجمالية وتجار الخان في ليلة النصف من شعبان وأول رمضان والعيد الأصغر والأكبر وعاشوراء؛ كما اعتاد إضاءة مسجد السلطان برقوق الذي يصلى فيه بقناديل جديدة أول كل عام، وتوارثت ذريته حكايات النور وطاقة القدر التي ظهرت لجدهم، وأضاف إليها خيالهم جيلا بعد جيل.

بعد قرن ونصف من الزمان كان ثمّ مهندسٌ نابغ مسئول عن إضاءة إحدى أكبر المدن الجديدة يجلس في غرفة المراقبة يطالع صورا تبثها الأقمار الصناعية للمدينة يوم افتتاحها.. تبدّى الطريقُ الدائريُ حولها مكللا بالأنوار فيما تسطعُ إضاءاتٌ أقوي فى قلب المدينةِ الدائرةِ.. علت وجهَ المهندس ابتسامةُ طفلٍ منبهرٍ.. أسند ظهره للمقعد وعيناه لا تتحولان عن مشهد النور وهو يتمتم

الله يرحمك ياجدى إبراهيم..

الحلم السابع

-1-

كان أكثر من نصف المدرسين والموظفين فى المدرسة قد تردد على الشيخة عفت طلبا للشفاء، وكانت الأستاذة سهير وكيلة المدرسة أكثر جمهور الشيخة حماسا.. الجميع ينادونها الحاجة سهير.. انفصلت عن زوجها منذ سنوات بسبب عقم خلقي لا علاج له.. بعد الانفصال صارت تواظب على الصلاة وتصوم كل اثنين وخميس..

كانت الحاجة سهير قد ترددت قبل طلاقها على الشيخة عفت لتيسير موضوع الحمل الذى عجز أمامه كبار الاطباء، ورغم أن المشكلة لم تحل فإن سهير خرجت على يد الشيخة من ضيق كدر خانق إلى رحابة الرضا بالمقسوم .

فى السنوات التالية ومع ذيوع صيت الشيخة عفت كمعالجة قديرة على ترويض الآلام و استحضار الشفاء من علوم الله تحولت الحاجة سهير إلى بوق دعائى جبار للشيخة وقدراتها وأسرارها الباتعة ..

- 2-

تجمع حول الحاجة عدد كبير من الموظفات والمدرسات والعاملات اللائى جربن الشيخة فى شفاء الاكتئاب والوسواس وحتى الصرع وبعض أمراض الأعصاب كتنميل الاطراف وآلام العنق وأسفل الظهر وغيرها، وظهر فى المدرسة ممتعضون، كان أشدهم إنكارا الأستاذ

عصام مدرس الكيمياء الشاب الذى كان يؤكد لطلابه فى كل درس أن لكل شيىء سبب علمى، وأن تفسير ما لم يفسر بعد آت لا محالة مع الزمن.. يسترسل فى مناقشاته الحادة مع زملائه فى المكاتب، وأمام الفصول، وفى حوش المدرسة حتى أن صوته علا ذات مرة أمام مكتب الحاجة سهير نفسها قائلا لأحدهم

– يا أستاذ دى خرافات مالهاش أساس.. جسم الانسان ده خلايا يعنى كيميا وفيزيا والمرض عبارة عن خلل كيميائى أو فيزيائى ما بيتعالجش بالخيالات..

يومها خرجت الحاجة سهير من مكتبها.. تحاشت التعليق على الكلام.. صاحت

– انتو سايبين شغلكو وواقفين تتكلمو؟!!.. كل واحد على شغله يا أستاذ انته وهوه

–3–

الأستاذ فتحى البطراوى مدرس التاريخ علاقته طيبة بالجميع، لا يحب أن يغضب أحدا من الفريقين، ربما لأنه لا يملك فى الأمر يقينا.. يعانى من خشونة فى الفقرات.. تسبب له آلاما نارية فى ساقه.. تردد على الأطباء عامين كاملين، وخضع لفحوصات شتى، وانتظم على أدوية كثيرة.. لا يكاد يتوقف عن الدواء حتى يعاوده ألم جارف فى ساقه يصفه بالكهرباء.. يضطر إلى العودة إلى الأدوية فيتفاقم ألم معدته الذى يصفه بالنار.. فيهرع الى أدوية المعدة المتراكمة من بقايا

وصفات الأطباء.. حائر هو بين ألم الكهرباء والنار كما هو بين الحاجة سهير وعصام ..

تحكى له الحاجة سهير عن كرامات الشيخة، وأنها لا تعالج إلا بالقرآن الذى هو فى الأساس شفاء، وأن اختصاص الشيخه بذلك دون باقى الناس أمر طبيعى لأنه اختيار من ربنا، وتعدل بسبابتها النظارة على أنفها معقبة

- وعلميا هناك أشخاص لهم قدرات خاصة..

تتأرجح نظرات فتحى بين التصديق والشك فتختم كلامها ببرهانها الأكبر

- اسأل ميرفت لما ودت ابن اخوها، وهبة لما ودت أمها، والواد عاطف بتاع البوفيه لما راح بنفسه، ولا الحاج مأمون تاجر الخشب اللى فى آخر الشارع ..

يقابل الأستاذ عصام فيحدثه عن "الدى إن ايه" الذى يحمل صفات الإنسان كلها مسبقا بدءا من لون عينيه حتى استعداده للإصابة بمرض السكر.. آخر لقاء بينهما كان فى الحديقة كان عصام يشير بيديه كثيرا أثناء كلامه.. يحتقن وجهه الأبيض، وتتأرجح تفاحة آدم صعودا وهبوطا فى عنقه النحيل.. كان فتحى منصتا إليه معجبا بيقينه.. غمرتهما طلائع عطر أنثوى انتبه لها فتحى فتلفت حوله.. استقر نظره على مركز دائرة العطر مقبلة تقترب.. مدرسة حديثة التعيين تضطرم عيناها بحيوية فائقة.. مرت قربهما فألقت

عليهما التحية.. رمق فتحى صدرها المتحفز ورد التحية.. كأن عصام لم يلحظ مرورها.. ظل منهمكا فى حديثه عن مكونات الخلية الحية وكيفية عملها.. ابتعدت فيما ظلت أصداء عطرها تملأ صدر فتحى.. سرح فصار صوت عصام أصداء مبهمة.. انتبه بعد لحظات على كف عصام تخبط على جذع الشجرة، وحنجرته تتأرجح فى عنقه، ونبرته تؤكد

مصدر طاقة الخلية مركب كيميائى معروف محدد.. أدينوسين تراى فوسفات ..

بقيت فى أذن فتحى عبارة (أدينوسين تراى فوسفات).. بدا كأنها اسم للعطر الذى غمره منذ لحظات.. ابتسم مرددا

تمام .. تمام

واستأذن منصرفا..

– 4 –

فى الأيام التالية شهد عصب ساقه اليمنى سيالات متزايدة من الألم.. استلقى فى فراشه يبتلع الأدوية من كل شكل.. يترامى إليه صراخ زوجته فى الأولاد الذين يهملون الواجبات، ويتسمرون أمام الكمبيوترعلى ألعاب حربية تختلط صرخات القتلى فيها بصرخات أمهم.. دخلت إليه تناوله الشاى على عجل مشوشة الشعر رثة الملابس.. تقدمتها رائحة عجيبة تختلط فيها الطماطم بالثوم بما لا يعلم من البهارات..

نهض ببطء قابضا على فخذه الأيسر.. رشف رشفة من الشاى.. أشعل سيجارة.. جز على أسنانه وهو يمد ساقه يغير وضعها عساه يظفر بدقائق خالية من الألم الثقيل.. نظر الى أكوام الدواء على المكتب واستعاد كلام الحاجة سهير الأخير

جرب انته هتخسر ايه.. جرب

قبيل الغروب كان قد انطلق إلى الشيخة عفت محدثا نفسه بأنها تجربة، وأنه ليس لديه بالفعل ما يخسره..

– 5 –

أمام منزل الشيخة الرابض على حافة الحقول اختلطت السيارات الملاكى من كل شكل بميكروباسات الأجرة بعربات الكارو، وفى الداخل اختلط شيوخ وشباب ورجال ونساء وأطفال.. كرنفال يضم جلابيب كالحة، وعباءات فخمة، وعمائم كبيرة، وقمصانا ضيقة، وكرافتات أنيقة، وبنطلونات جينز.. لهجات سكندرية مرحة، وقاهرية رقيقة، وقروية ممطوطة.. لم يقلق من انتظار الدور.. تأمل الخلق الآتين من مختلف الأرجاء واستبشر خيرا.. هل يتجمع كل هؤلاء على وهم ؟ !.. أسرار الدنيا كثيرة وقد يكون فى الشيخة أحدها.. علم الإنسان ضيق محدود مهما قال عصام ..

خرجت من عندها امرأة فى حال من الوله تصيح

– اللهم صل على النبى .. النور فى وش ستنا زى البدر ليلة تمامه.. ربنا يجعل على إيدها الشفا

جاء دوره فدخل إلى الشيخة.. كانت امرأة فى حوالى الستين تجلس على أريكة فى ثياب بيضاء.. أمامها كوب من الينسون لا يزال بخاره يتصاعد .. شكى لها مرضه فوضعت يدها على ركبته وظلت تتمتم لدقائق وهى مسبلة العينين.. تشى ملامحها بجمال قديم رغم ازدحام التجاعيد حول عينيها.. أنهت الشيخة رقيتها غيرالمفهومة بعبارة التقطها فتحى

.. من العضم للحم من اللحم للجلد من الجلد للهوا....

كررتها ثلاثا فهيىء له أنها تحاول إغواء المرض بالخروج.. سألها عن الحال فهزت رأسها

خير إن شاء الله.. ربنا يجيب الشفا..

وأشارت بيدها ناحية الباب فانقطع الطريق على أى نقاش فنهض منصرفا..

عاد إلى بيته منبهرا بجماهير الشيخة الغفيرة، وقرر ألا يحكى ما حدث لعصام، ولا حتى للحاجة سهير.. كان الألم قد بدأ فى الانزياح.. لا يعلم أذلك من جرعات المسكنات التى تناولها أم هى إرهاصات كرامات الشيخة..

-6 -

فى صباح اليوم التالى نهض من نومه.. توجه مباشرة إلى الحمام بنصف يقظة.. لم يبدأ فى تذكر ما رآه طوال الليل إلا بعد أن غمرت المياه رأسه تحت الدش.. كان حلما عجيبا.. رأى نفسه يعدو بسرعة

حصان برى فى سهوب خضراء واسعة كالتى يراها فى أفلام طرازان.. توسط الوادى الفسيح ثم تلفت حوله ثم انكمش على نفسه يستحث أنفه كجرينوى فى فيلم العطر الذى شاهده منذ أسابيع.. نهض فجأة وقد حدد مصدر الرائحة فعدا تجاهه حتى وصل بغير لهاث .. بحيرة بجع ليس فيها إلا بجعة واحدة.. المدرسة الشابة حديثة التعيين.. خرجت من البحيرة تتراقص وحولها نثار الماء.. حملها فتحى وصعد إلى شجرة كثيفة استقرا فيها حيث الغصن فراش وثير.. طرحت الفتاة كل ثمارها فى أحضانه فأقبل ينهل بقوة ودربة حتى ثمالة الثمالة من نشوة لم يعرفها من قبل ..

لم يهتم فتحى بالأمر حين تكرر فى الليلة الثانية.. لكنه انتفض من فراشه فى الليلة الثالثة بعد أن تكرر الحلم ذاته.. خرج من غرفته.. اجتاز الصالة الى المطبخ .. فتح الثلاجه فألقت عليه ضوءها الخافت .. رفع زجاجة الماء على فمه يجرع بنهم .. عاد إلى فراشه.. ومضت فى قاع عقله فكرة ضئيلة تشير إلى علاقة ما بين زيارته للشيخة عفت وحلمه المتكرر ..

فى نفس اليوم فى المدرسة بعد الحصة الثالثة دخل مكتب الحاجة سهير.. لم يستطع التمهيد كالمعتاد لحديثه فابتدرها متسائلا

– أنا رحت للشيخة عفت من كام يوم ..

تهلل وجه سهير

– أخيرا سمعت الكلام.. كويس أوى.. بكرة تدعيلى

تردد قبل أن يتابع

- بس فيه حاجات غريبه كده بتحصل للواحد بعد ما راحلها

ابتسمت الحاجة سهير ابتسامة عليمة

حلمت بحاجه؟

هزه السؤال المفاجئ.. أحس أنه تعرى فجأة وسط الطريق.. لم يستطع الرد

ابتسمت الحاجة فى بشاشة وقالت

مش قلتلك الشيخة عفت كلها بركة؟

وضع فتحى كفه على فمه لا يعرف ماذا ينبغي عليه أن يقول.. هل تحلم الحاجة سهير بما يحلم؟!!.. تواردت إليه مشاهده الحارة مع المدرسة الشابة متداخلة مع نظارة الحاجة ووجهها الممتلئ وطرحتها وابتسامتها المنشرحة والملفات المتراكمة أمامها.. حتى استرسلت تقول

- طيب دنا بعد ما رجعت من عندها المرة اللى فاتت فضلت أحلم أسبوع سبع ليالى

مندهشا مصدوما تخيل الحاجة الوقورة ترمح مطاردة الأستاذ عصام فيما هويشرح تركيب الدى إن ايه ويفسر انطلاق طاقة الخلية من أدينوسين تراى فوسفات فى نفس الوادى الأخضر ثم تحمله لتصعد به الشجرة الموعودة.. انتبه لحديث الحاجة يجذبه من خيالاته ودهشته شيئا فشيئا

حلم واحد ياأستاذ فتحى كل ليلة.. أشوف خير اللهم اجعله خير.. إنى فى الحرم بالليل وأنا بطوف السبع أشواط فى زحمة كبيرة أوى بس زى اللى محموله على جناح.. أقوم من النوم مرتاحة أوى كأني لسه طالعة من الحرم حالا.. ربنا يكتبها للجميع يا رب..

بدأ فتحى يستعيد تركيزه بعد أن ثبتت براءة الحاجة

وده أصله ايه ياحاجة ؟ وايه علاقته بزيارة الشيخة عفت

زمت الحاجة شفتيها كأنها تقول لا أعرف ولكنها قالت

بركة..

انصرف فتحى تتضارب فى رأسه الأفكار.. هل أورد فرويد أو يونج تفسيرا لنوعية من الأحلام ترتبط بزيارة شخص ما؟.. لمَ اختلف حلمه عن حلم الحاجة سهير؟.. وموضوع الشفاء سبب الزيارة الأصلى هل يتحقق؟.. ما سر هذا الجمهور الغفير من زوار الشيخة؟.. ترى هل يرون كلهم أحلاما؟ !

فى طريقه إلى بيته تساقطت الأفكار فكرة تلو أخرى.. فتح الباب ودخل ولم تتبق فى ذهنه إلا فكرة واحدة مسيطرة واعدة متألقة رددها بينه وبين نفسه مبتهجا

لسه باقى أربع أحلام ......

-7-

انقضت أيام ثلاثة لم تتحسن فيها حالة فتحى لكنه كان مستمتعا بحلمه الرائع حتى كانت الليلة السابعة.. مبتهجا آوى إلى فراشه كأنه يتعجل لقاء منتظرا.. وكالعادة ابتدأ الحلم بعدوه كالبرق تتناغم عضلاته، وتتابع حركات مفاصله كفهد رامح .. توسط الوادي ككل ليلة، وأقعى ينتظر الرائحة محمولة على أجنحة النسيم لكنها لم تتأت له ولا حتى طلائعها.. يزداد تركيزا مستعجلا الرائحة كأنه يستحضر روح الفتاة من سماء قصية لكن شيئا لا يحدث.. أصداء صوت بعيد لنبرات متحمسة يترامى من ناحية البحيرة تارة ومن ناحية الشجرة تارة.. يصيخ السمع.. تتضح شيئا فشيئا.. تعلو فتملأ الوادي مدوية.. إنه صوت عصام مدرس الكيمياء يردد عبارة واحدة..

أدينوسين تراى فوسفات.. أدينوسين تراى فوسفات ..

انتفض من نومه.. كانت سيالات الألم تأخذ مداها من فخذه الى ساقه ، وصوت عصام عالق فى أذنيه.. أنزل ساقه إلى الارض برفق عاضا على شفتيه من الألم ..مد يده فأضاء النور.. استند إلى حافة السرير حتى وصل إلى كومة الدواء فوق مكتبه.. حائرا بين الأقراص والكبسولات راح يتفحص الزجاجات المختلفة.. أين المسكنات ؟ و أين دواء المعدة ؟ سبعة أيام مرت على الزيارة ولم تظهر بوادر شفاء !!.. ما الذى أقحم صوت عصام الأجش إلى قلب حلمه الأثير؟!!.. التقط كبسولتين ووضعهما فى راحة كفه..

تلفت لم يجد ماء.. كان عليه الخروج من الغرفة ليجتاز الصالة إلى المطبخ حيث الثلاجة.. ضغط على فخذه لينهض.. بدا الطريق طويلا.. جلس على مقعد قريب ينتظر أن يخفت الألم فيما هو ينظر إلى باب الغرفة يتراءى له كأنه فى أفق بعيد..

مملكة الأصوات البعيدة

تك تك تك رتيبة ، بم بم بم متقطعة، ززززززز لحوحة، طاخ مفاجئة، كر كر كر كر متصاعدة ، دب دب دب قوية، مممممممم مكتومة، زننننننننن متواصلة، رننن مجلجلة، سسسسسس خافتة، آآآآآآه زاعقة، سك سك سك صاخبة، رررررر معافرة، كاك كاااك معترضة ، سو سو سو حادة، عععععع ناعقة...

يبدأ اليوم على حافة الفجر بصرخة القطار كأنه ديناصور يكافح من أجل البقاء ثم تولد الأصوات بعده خافته.. أصوات وقع أقدام، نداءات غير واضحة، ارتطام صناديق خشبية بالأسفلت، قرقعات أبواب معدنية، صياح ديك بعيد.. يستيقظ معتز عبد الهادي بعد ليلة نوم عميق.. ينهض من فراشه نحو الحمام.. يعلم كنه كل صوت مهما خفت بحكم الدربة، ويعرف الأصوات القادمة مسبقا بحكم العشرة الطويلة.. ما هذه إلا الموجة الأولى من أصوات الميدان.. شرارة خافتة لن تلبث حتى تشعل الضجيج زاعقا في الأفق ..

يقع سكن معتز في ميدان المحطة على بعد أمتار من شريط القطار، ومحطات القطار دائما تفرز أسواقا تجتذب باعة الخضروات وأكشاك السجائر والحلويات والجرائد وتجار الفاكهة ومحلات الملابس والمقاهي ومطاعم وفنادق ومواقف السيارات الأجرة التي تستتبع بدورها وجود محلات قطع غيار السيارات واكسسواراتها وورش تصليح كل جزء فيها.. الميدان خلية نحل تشغى بالحركة والطنين ليل نهار..

لا شيء يعرف الثبات أوالهدوء هنا؛ حتى جدران البيوت تهتز دائماعند عبور القطار، ويسمع لجدرانها صوت الأزيز.. الشقة بالطابق الأول تأخذ ناصية مميزة تجعلها متداخلة مع فضاء الميدان الصاخب.. سكان البيت والميدان كله لا يقيمون هنا إلا مضطرين؛ فمن الذى يستطيع تحمل هذا الضجيج الأبدي، كثير منهم هجر سكنه إلى الدراسات والمجزر وجديلة وطلخا ، والميسورون هاجروا إلى المشاية وحى الجامعة حيث الأبراج الجديدة.. تحولت الشقق كلها إلى عيادات أطباء ومكاتب محامين وشركات، وحده بقى معتز الساكن الوحيد فى بيت الصخب كما كان أصدقاؤه يسمونه كلما زاره أحدهم .. دائما يرد ضاحكا بأنها شقة إيجار قديم من أيام والده رحمه الله، ولا يستطيع صحفي مثله التحصل على أفضل منها فى المنصورة إلا إذا كان يعمل في إحدى المجلات الخليجية الفاخرة..

طوال عمره ظل معتز عبد الهادي لا يرى فى الصخب إلا جزءا طبيعيا من نسيج الحياة اليومية.. فى ساعات عمله فى مكتب الجريدة بالحي الراقي بالمدينة.. كان يتعجب من تحمل الناس لعمق الهدوء الذي شبهه بهدوء المقابر.. الشارع المكتظ بالأشجار تمر فيه سيارات بين الحين والحين لا تستخدم الأبواق إلا نادرا والمنطقة كلها ليس فيها ورشة واحدة.. المقاهي هنا تفقد اسمها ومعناها فهي علب زجاجية مكيفة الهواء لامعه الأبواب ليس فيها دقات زهر الطاولة ولا خبطات أحجار الضمن ولا صيحات الناس الضاحكة والمرحبة والمناكفة.. لم يتصور نفسه أبدا يسكن هذه الأحياء الثلجية المنشاة.. يضيق بالأشخاص الذين تحتبس أصواتهم فى حلوقهم فتخرج كهمسات..

يراهم دائما بطيئى الحركة كسولى النظرات.. يحمد الله فور وصوله إلى سكنه يفتح النوافذ كأنما يعطى مئات الأصوات سماحا مطلقا للدخول.. يتناول غذاءه أمام التلفزيون الذى يصيح بأعلى درجات صوته معلنا أهم أنباء التفجيرات والحروب أو عارضا أغنية راقصة ينخلع القلب لعنف طبولها أو أحد أفلام الاكشن التي يدمر فيها البطل مستودعا شاسعا يمتلئ بمواد قابلة للانفجار.. لا يصوغ معتز تحقيقاته الصحفية ومقالاته القصيرة إلا هنا فى البلكونة فتخرج مشحونة بالحرارة والصخب الحي كما يردد دائما.. فى البلكونة نفسها يقرأ ماركيز وأمبرتو ايكو ونجيب محفوظ وخيرى شلبي وأمين معلوف.. يقرأ شوقي ودنقل وأدونيس و يقرأ ديورانت وفوكوياما وكتب دين وتراث وتاريخ شتى ..

الليلة — ولأول مرة فى حياته — ينتفض معتز من نومه فزعا.. كان الوقت قبيل الفجر بقليل هيئ إليه أن صرخة مدوية شقت رأسه منذ لحظات أصاخ السمع فلم يجد أى صوت غير معتاد فتيقن إنه كان يحلم.. كان ظامئا لكن النوم أثقل رأسه فلم يستطع النهوض.. دخل ملكوت النوم العميق بمجرد أن لمس رأسه الوسادة.. انتفض ثانية..هيئ إليه إنه استمع إلى بقايا صرخة الحلم في ثواني اليقظة الأولى.. كان يلهث كعداء فى نهاية مارثون طويل.. لم يحتمل الظمأ هذه المرة فنهض ليشرب.. استعاد هدوءه مع نزول جرعات الماء البارد فى حلقه متسارعة.. طار النوم من رأسه كأنما إلى غير رجعة.. توهج تركيزه وهمس لنفسه وهو يحدق في زجاجة الماء التي كانت لا تزال في يده

- مكانش حلم

أغلق التلفزيون، وأسرع إلى النافذة المفتوحة يمسح الميدان بعينية كأنه سيجد مصدر الصوت الغريب هنا أو هناك.. بدأ يتذكر ملامح الصوت جيدا.. سحبة كمان أسطوري تشرخ الليل والحواس.. تبدأ من صفر السكون متصاعدة على سلم متصاعد حتى تصل إلى قمة من الحدة تنصهر عندها الأشياء ثم تتلاشى من نقطة القمة بغير تدريج لكن صداها يتبدد فى الكون ليكمل تدرج الوصول إلى الصفر الأول.. على مستودع الأصوات التي تملأ رأسه منذ زمن عرض الصرخة المفزعة فلم يجد لها مصدرا.. كانت السماء تمتلئ بقرآن الفجر المنبعث من ميكرفون الجامع.. خمن أن يكون ثم خلل في السماعات أصدر مثل هذا الصوت المفزع .. أنصت.. كان الصوت رائقا، وكان المقرئ يشدو بعذوبة

وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب

توجه إلى المطبخ ليعد قهوته وقد أيقن أنه لن يعود اليوم إلى النوم.. من نافذة المطبخ جلية قوية دهمته الصرخة اللعينة حادة قاطعة.. كمن لسعت أعصابه النار قفز إلى النافذة.. دلى رأسه إلى المنور يصيخ السمع.. بكاء وليد متصل وصوت امرأة تهدهده.. الصوت قادم من الطابق الأرضي.. تذكر الأثاث الذي شاهده يدخل العمارة منذ يومين.. سكان جدد.. هل يعقل أن تكون الصرخة العاتية صادرة من هذه الحنجرة الضعيفة التي لا تكاد تقوى على البكاء.. جاءه الرد فوريا يشق رأسه إلى نصفين.. انسحب من النافذة

وأغلقها بإحكام.. خرج إلى الصالة وقد انشرخ فى كيانه شيء لا يعلمه.. انطلق الآذان من مكبرات المسجد القريب فطن رأسه كأن المكبرات معلقة على أذنيه.. دقائق وزعق قطار الفجر يعلن ولوجه المحطة فاهتزت ضلوعه وتكرمشت معا لم وجهه..

كان ذلك الصباح فارقا فى حياته التى انقلبت جحيما .. طبلة أذنه وخلايا مخه وشبكة أعصابه صارت فجأة بالغة الحساسية لكل صوت.. الوسائد المتراكمة فوق رأسه، والقطن الذي ملأ به أذنيه، والنوافذ التي غيرها بأخرى أكثر سماكة وإحكاما لم تفلح فى ترشيح الأصوات الكثيرة الصاخبة التي تقتحمه فى كل الأوقات.. صفارة القطار التي لم تكن لتقلق نومه صارت كأنها صوت انهيار كوني.. أبواق السيارات التى لم يكن ينتبه إليها صارت فوضى عارمة يضيف كل منها إلى كيانه شرخا جديدا.. الدق والخبط والرزع الصادر من الورش المحيطة صار انتهاكا لإنسانيته التي تأقلمت طويلا عليها.. تعدى أمر معتز الانزعاج من الأصوات الصاخبة العارمة إلى الأصوات الهادئة بل والخافتة.. أصوات رواد المقهى التي تصله مخففه، وأحاديث المارة ليلا التي تكاد لا تصل نافذته، صوت غلق باب فى الشقة المجاورة، صوت طشة الزيت فى مطبخ الجيران، وقع الأقدام الصاعدة على سلم العمارة، صوت ارتطام كوب الشاي بالمنضدة، صوت سقوط قلم على الأرض.. قبيل الانهيار بسنتيمتر واحد هرع إلى الطبيب النفسي ..

جلس أمام الطبيب مستنجدا.. حدثه عما كان من قبل الصرخة، وعما كان من بعدها.. استمع الطبيب كثيرا ثم سأل سؤالين ثم شرع يكتب الروشته وهو يسأل الثالث.. عاد إلى بيته محملا بأدوية كثيرة.. تقدم بطلب أجازة مرضية من العمل وواظب على تناول أدويته.. بالكاد استطاع أن ينام بعد ليال من الأرق.. قلل العلاج المكثف من انزعاجه من الضوضاء بعض الشيء إلا أن الصرخة اللعينة كانت تنطلق فى جوف الليل فتدمر كل شيء.. من البواب علم أن الأسرة التى سكنت حديثا لديها طفلة صغيرة لم تتعد العامين تنام طوال النهار وتصحو الليل كله ولها صرخة عجيبة شكى منها الجيران ..

فى ليلته الأخيرة بالشقة اللعينة هرع بالبيجامة قبيل الفجر خارج العمارة كلها عقب الصرخة اللعينة.. انتحى جانبا بعيدا من المقهى و ظل يدخن ويشرب القهوة حتى الصباح.. حين تيقن أن الشمس قد سطعت اقترب من البوابة على حذر.. لم يسمع أى صوت قبالة باب الأسرة الجديدة.. أسرع صاعدا.. أغلق بابه برفق و توجه فورا إلى غرفة نومه وراح يجمع ملابسه وحاجياته فى حقيبتين كبيرتين ..

انتقل معتز إلى سكن بعيد عند آخر نقطة عامرة من المدينة، المنطقة هادئة إلى حد كبير، ينقطع الطريق المرصوف قبل مسكنه بعشرين مترا.. يكمل الطريق جريانه ترابيا وسط حقول فسيحة.. الأصوات هنا مختلفة تماما.. فى الصباح زقزقة العصافير، وخوار البهائم، ونهيق الحمير، وخرير المياه، وهدير بعيد لماكينات الري، وفي

المساء نقيق ضفادع، وحفيف الهواء بين الزروع.. واظب على زيارة الطبيب وشكي له استمرار انزعاجه من الأصوات الجديدة و إن كان بدرجة أقل من السابق.. كثف الطبيب الدواء والتزم معتز تماما.. بصعوبة أنجز مقاله ولكنه لم يستطع إكمال تحقيقه الصحفي حول مشكلة القمامة المتراكمة فى الشوارع ..

فى جوف الليل كانت الأصوات تعاود سمعه.. لا يميز بينها فى البداية.. يحاول تجاهلها بعض الوقت لكنه بغير إرادة يصيخ لها فتبدأ فى التمايز.. صوت القطار وضجيج مقهى ودقات ورش وأصوات آدمية يعرف أصحابها، وتنطلق صرخة حادة الصوت الوحيد الذى لا يزال يلهب أعصابه بألم عميق ..

بمرور الوقت صارت الأصوات كلها واضحة ولكنها مخففة كأنها تأتى من وراء جدران سميكة أو من بعد بعيد.. اعتادها معتز فلم تعد تؤلمه.. حتى الصرخة نفسها صار يسمعها كذكرى تغلف حدتها أستار مجهولة.. شيئا فشيئا اكتسبت الأصوات نقاء رائقا، وارتفع عن تفاصيلها إبهام الخفوت.. ظن فى نفسه الجنون لولا يقينه القاطع فيما يسمع، لم يعد يسمع ضجيج المقهى خليطا بل صار يلتقط همس حوارات دارت بين روادها منذ أعوام

صوت خشن يجاهد ليهمس

- الفلوس وصلته مقدم و مشفتش بضاعة

صوت رسمى يقرر

- الهدف وصل حالا يا أفندم

صوت امرأة قلق

- الو.. أنا قدام المحطة اهه .. انت فين ؟

آلاف التفاصيل بدأت تتضح وتتكامل فى أذن معتز يوما بعد يوم.. استمع إلى اجتماعات مدير التحرير المغلقة وما دار فيها.. علم طرق تنفيذ مؤامرات تمت فى الجريدة لم يكن يفهم سرها.. حوارات بين عشاق وطلبة وزبائن ومارة وتجار مخدرات ومخبرين وشحاذين ولصوص.. من الخلوات جاءته أصوات الدراويش والزهاد.. ومن السجون سمع أصوات المجرمين والمظلومين.. ومن الحانات سمع بوح السكارى.. ومن عمق الليل استمع لآهات العشاق حين الفراق وحين الوصال.. التقط صوته وهو طفل يلهو فى مدخل العمارة مع أبناء الجيران، وصوت أبيه يناديه ليصعد وصوت أمه تدعوه إلى الطعام.. ثم بدأت آذانه تلتقط أصواتا غريبة تنطق بلغات غريبة.. تعرف منها على الألمانية والأسبانية والإنجليزية، وأخرى لا يعرفها خمن أن منها السنسكريتية والآرامية والسريانية.. أصوات شتى لسحرة فى جبال بعيدة، وفرسان فى صحار نائية، وجرحى يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وفقراء في أكواخ بالية.. أصوات تأتى مختلطة بصهيل جياد، وصليل سيوف، وخرير مياه، وصفير رياح، وعواء كلاب، وأنغام لآلات لا يعرفها.. بمرور الأيام اتضحت الأصوات أكثر فأكثر، وبدأ معتز يتلمس فيها معالم مكتملة لحكايات عجيبة، وفيما استعصت

عليه كتابة مقاله الأسبوعي منذ فترة راح يكتب ما يسمعه من أحداث وقصص ..

ستلتئم حكاياته سردا ممتعا تتجمع وتتفرق، وتنقبض وتنبسط، وتضيق وترحب، وتتوتر وتهدأ لتتبلور روايته الأولى التي سيعرف بها بعد ذلك ولكن أحدا لن يعرف أنها وحي مملكة أصواته البعيدة..

لون يمنع الحسد

حين داهم الوهن المعلم سلامة أول مرة لم يأبه له مطلقا، نهض من فراش زوجته الثانية متعللا بالإرهاق وانشغال البال.. ثقة المعلم فى فحولته كانت مطلقة يعززها تاريخ من السرمحة والشقاوة، وزيجة أولى مضى عليها قرابة ربع قرن، وأخرى مضى عليها عامان فقط ..

أم العيال حين ولت أيامها، ووجدت الرجل لا يزال يطلب ما يطلبه شاب طائش ذكرته بسنه مرات كثيرة، وتهربت منه مرات أكثر حتى ضبطته يوما مع إحدى جاراتها فوق السطوح يخور فوقها كثورعفى.. سمحت له بعدها بالزواج على مضض لكنها اشترطت أن تكون ضرتها بنت أصول، وليست من فتيات الشوارع اللاتى يسيل لعابه عليهن.. فرح المعلم كثيرا.. استقل القطار فى اليوم التالى مباشرة إلى قرية أمه.. مكث أسبوعا وعاد بسماح.. فتاة ريفية يتيمة من أسرة فقيرة لم يمر الزمن على وجهها الرائق بعد، وجسدها مشرع يشق الفضاء بقوة..

لم تستطع أم العيال إخفاء مرارتها؛ لكن العروس بمرور الايام وبطيبة منكسرة اكتسبت ودها فأصبحت تعاملها كابنة.. أسكنها المعلم وحدها الطابق الثالث لكنها كانت تقضى معظم النهار مع الحاجة تطبخ وتكنس وتغسل.. استراحت الحاجة من طلبات الرجل وأعباء البيت، وتجرعت غيرتها حين رأت وجه سماح المتورد، وحين صار المعلم يعود مبكرا معظم الأيام.. حملت سماح فابتهج المعلم

كثيرا.. نشر الخبر بين كل معارفه فى زهو.. أيام الحمل كانت سماح كثيرا ماتمتنع عنه فيغضب ويهددها بالزواج مرة ثالثة .. تقول لها الحاجة

- معلهش يا بنتى اتحملى شوية .. دا مجنون و يعملها

وضعت وليدها وتعافت وازدادت جمالا فعاد المعلم إلى جموحه المعتاد حتى كانت الليلة المشئومة التى دهمه فيها الوهن الغريب.. كانت فاتحة ليال تعسة تأكد فيها من تبدل حاله، وانكسار شوكته، لكن جذوة مستعرة من الإنكار ظلت تتقد داخله ترفض ما صار فى حكم الأمر الواقع ..

فى البداية غير المعلم نظام غذائه تماما فصار لا يأكل إلا البط والحمام والجمبرى والاستاكوزا والجرجير واشتملت أطباقه على الكرفس وجوزة الطيب وكل ما يعرفه من أطعمه تقوى العصب وتشد الحيل.. شهور مضت لا العصب قوى ولا الحيل اشتد.. الأكل المخصوص يحمى جسده يدفع الدم فى عروقه فينهض لكن نهضته لا تكتمل.. تنسحب سماح من تحته تتصنع عدم الاكتراث.. ذات مرة أرادت مواساته فقالت

- ما يهمكش يا معلم .. تلاقي بالك بس مشغول بحاجة

نزلت كلماتها عليه بعشرات المعانى من بينها السم الناقع ..

هرع سرا إلى عطار شهير عاد من عنده محملا بنوع جبلى من العسل أوصاه بلعقه كل صباح.. قال له أن العسل فيه شفاء من كل

داء، وأن الجماعه الخواجات من زمن كانوا يطعمون منه العرسان فى شهر الزواج الأول لذا سمى بشهر العسل .. أعطاه العطار أيضا كميات من البهارات والمكسرات والقرفة والزنجبيل، ونوعا من الأعشاب اسمه شرش الزلوع قال له أنه ينبت فى أعالى جبل بالشام، ونوعا آخر لا يذكر اسمه قال له أن الهنود الحمر كانوا يأكلونه ..

انصاع المعلم كتلميذ ملتزم، وصار يلعق العسل صباحا، ويأكل طعامه بالبهارات ظهرا، ويتعشى بالجمبرى ليلا، ويشرب القرفة والزنجبيل طوال اليوم، وانتظم على أعشاب جبل الشام والهنود الحمر.. ازداد وجهه توردا، وجسده سمنة.. بريق من أمل يلوح لكنه كاذب كسراب لا يصمد حين اللقاء.

ذهب إلى طبيب شهير بوسط البلد فحص جسده ونبضه، واطمأن على ضغط الدم والبروستاتا، وطلب تحاليل سكر وهرمونات.. جاءت النتائج كلها طبيعية باستثناء الكوليسترول بسبب دسامة وجباته.. لم يجد الطبيب سببا محددا لما يشكو منه المعلم فكتب له كبسولات تخفض الكوليسترول، وحقنا تقوى الأعصاب.. طمأنه الطبيب ، وقال له أن هناك دواء سحريا ظهر فى أمريكا وسيصل مصر قريبا يحل مثل هذه المشكلات بسهولة..

واظب المعلم على أدوية الطبيب لكن لا حياة لمن نادى.. أم العيال أحست بالأمر فالتمعت عيناها بنظرة شماتة، وسماح بدأ صوتها الخفيض يعلو وهى تصرخ فى طفلها، وبدت خطواتها فى جنبات

الشقة أكثر قوة وصخبا بعد أن كانت تتحرك كنسمة لا يحس بها أحد..

كان المعلم يتحاشى وصف ما هو فيه بالمرض، ولا يدعو الله بالشفاء بل بانصلاح الحال..

جلس يوما فى مقهاه تحت البيت يدخن الشيشة شاردا.. هل هذا معقول ؟.. هل يخبو أوار الجحيم فجأة ؟!.. هل تسقط أنياب السبع وهو نائم فيصحو قطا أليفا ؟!

أنكر المعلم وقال بصوت مسموع

- لا مش معقول..

عصر ذهنه فلم يجد إلا أنها نظرة حسد أصابته.. نعم.. أصحاب المقاهى والمحلات حسدوه على صحته؛ وخاصة بعد أن أنجب من سماح.. نظروا اليه نظرة شر وهم يرونه ناضرا متوهجا بينما هم فى مثل سنه وشمسهم آخذه فى الغياب..

ألقى مبسم الشيشة ونهض يتمتم

- قل أعوذ برب الفلق

فى المساء ذهب إلى شيخ شهير باستخراج الجان وفك الربط ومنع الحسد.. رقاه الشيخ بآيات كثيرة تذكر السحر والسحرة.. أحضر الشيخ سبع ورقات سدر أخضر، وقرأ عليها كلا من الفاتحة،

والصمدية، والمعوذتين سبع مرات، وأمره أن يشرب منها، ويغتسل فجرا ثلاثة أيام تباعا على أن يكون ذلك خارج الحمام ..

بعناد لا يلين يستيقظ قبيل الفجر وينزل إلى الطابق الأرضى ليغتسل فى المنور بالماء المبارك.. أم العيال تسمع صوت الماء فتمصمص شفتيها

- عايز ياخد زمنه وزمن غيره ؟ ..

بعد الأيام الثلاثة دخل المعلم محاولته مستميتا.. مسلحا بالجمبرى عشاء، والقرفة شرابا، والعسل لعقا، والكبسولات بلعا، والماء المبارك اغتسالا.. كشف سماح تماما فسطع جسدها كنور اليقين.. شرق وغرب، صبر وثابر فلهثت وقد انفتح الكتاب.. اشتعل وقد آنس العزيمة فى عروقه فأقبل لكن الخور كان فى انتظاره خلال الطريق.. انسحب هذه المرة مضعضعا كما لم يحدث من قبل.. لزم الفراش مريضا أياما عاده فيها الأهل والأصدقاء .

أول خروج له من البيت كان إلى عيادة الطبيب.. ذهب محملا باللوم، وطلب النجدة العاجلة.. استقبله الطبيب باسما

- إيه الاخبار يا معلم

- الأخبار لا تسر عدو ولا حبيب يا دكتور

شرع يشكو إليه بحرارة فيما كان الطبيب يخرج من درجه بحرص علبة دواء مبتسما.. فى لمح البصر ربط المعلم ابتسامة الدكتور بعلبة الدواء بحديثه السابق عن دواء بلاد بره.. لمعت عيناه فجأة، وارتعش

خده الأيسر متلهفا إلى سماع كلمة بعينها.. بدا الطبيب وكأنه استغرق دهرا ليتكلم.. أخيرا نطق..

- الدوا اللى كنت كلمتك عنه

نهض المعلم لينقض على العلبة بكفه الغليظة لكن الطبيب أبعدها عنه مقهقها..

لملم ضحكته ثم قال للمعلم

- العلبة دى جاية لى من أمريكا لسه من أسبوع.. أنا هديك منها قرص واحد.. نجرب ونشوف..

ضبط السماعة على صدره واستعاد نبرته الوقورة

- تاخد نص قرص بس يا معلم قبل الموضوع بساعة

سأل المعلم برجاء

- يعنى يا دكتور تفتكر الحبوب دى هتعمل حاجة؟

- العلم طلع الإنسان القمر يا معلم تفتكر مش هيقدر يطلعك السرير؟

قالها الدكتور وضحك طويلا بثقة انسربت منها لوجه المعلم أمارات استبشار، ودق قلبه بعنف وهو يمد يده لالتقاط القرص الأزرق وكأنه فرصته الأخيرة ..

ولج ليلته يقدم رجلا ويؤخر أخرى.. أحس بالدم يضرب رأسه وبدقات قلبه تتسارع.. كان الليل قد انتصف والطفل قد نام.. آوت

سماح الى جواره بشعر مهوش وملابس علقت بها روائح طبيخ وقرفة ولبن.. أعطاها ظهره مترددا لكنه أحس فى كيانه بنبض العزيمة فأقبل لا يبالى.. لثمها فتمنعت لترفع عنه الحرج؛ لكنه جذبها فى عنف.. عبث بزواياها فانتشرت أشرعته على غير ما اعتاد فى الفترة الأخيرة.. انكب عليها يستلها من ثوبها على عجل، وبعنفوان الزمن الأول اعتلاها فتطامنت تحته تئن من هول الاقتحام ..

كان على يقين دوما أن ما حدث له هو أمر عارض.. لم يستسلم له لحظة، وهاهو يقينه يتمثل أمامه واقعا فيلغ فيه ويتوغل كأنما يؤكد لنفسه ما كان..

فى الصباح كان ينزل درجات السلم واثقا مبتهجا.. قابل أم العيال فضحك ضحكة طويلة لم تسمعها منذ فترة

- إزيك يا حاجة

أحست أن أمرا قد طرأ وقد رأت سماح تنزل وراءه بوجه لامع وهى تودعه بصوت عادت إليه رقته

- مع السلامة يا معلم

فى اليوم التالى ذبح المعلم عجلا أمام عتبات البيت، وجلس فى مقهاه يتابع العمال على السقالات وهم يطلون المبنى كله باللون الأزرق.. سأله الجيران والاصدقاء عن سر الدهان الجديد، واللون الازرق بالذات فابتسم قائلا فى نشوة

اللون الأزرق يمنع الحسد..

كفر الشجرة

نصفُك في الماء، ونصفُك في الطين.. أصلك ثابتٌ، وفرعك في السماء.. خضراءُ بلون الجنة.. شامخةٌ بكبرياء عنقاء.. كل زمانك ربيع.. كل هوائك نسيم.. تحملين ألف عش لألف زوج من العصافير يتسافدون كل ليلة.. تسكنُك ملكةٌ، وألف من الشغالة، وبضعة ذكور، وفي أوانٍ معلوم يسيل العسل من جانبك الأيمن شهدا جنيا.. لم يقربْك ثعبان، ولا عقرب، ولا جرادة ولا غراب، ولا شيء من هوام البر والبحر.. الكهف في جذعك مطلسم من دخله فهو آمن.. كم آوى من مجرمين، ولصوص، وعشاق، وهاربين، ونساك، وحائرين..

الخلقُ يتخذون أوراقك ترياقا، ولحاءك إكسيرا، وترابك بركة.. العذارى يقصدنك تحت سر الليل يطلبن الزواج.. والنسوة يغشينك مع طلة الفجر الأولى يمسحن جذعك بدماء حيضهن طلبا للولد.. والسحرة في كل البلاد يعملون بشيء من أثرك .. شيخ الجامع قال إن جذورك الضارب نصفها البحري في ماء الترعة تكتب بخط عربي مبين لا اله إلا الله آيةً لقوم يعقلون.. العمدة يقول أنك قائمة قبل أن تقوم العزبة ومن عليها، وقبل أن ينتجع أجدادُه الأُوَلون هذه الناحية من البر.. القابلة تقول أن أسهل الولادات ولادة حبلى مسحت بطنها بجذعك في التاسع.. وأن أسعد مولود هو مولود تمنته أمه العاقر في حماك.. المسافرون يقولون أن من اصطحب منك ورقة فى سفره

سالما إليك يعود.. والصغارُ سمعوا أن جنيةً تخرج في ليالي القمر من الترعة تتمرغ تحتك ساعة قبل أن تعود للماء ثانيةً..

أنت بركةُ العزبة كلها، غلب عليها اسمك فصارت تعرف في الخط كله بكفر الشجرة.. أهلها كلهم أحبابك ومحاسيبك.. الشيخ سالم – ولى العزبة المبارك – يقيم حضرات الليالي الكُبَر في رحابك.. ليلة المولد الشريف، وليلة وقفة رمضان، وليلة القدر، وليلة مولد سيدنا الحسين، والسيدة زينب، والسيد البدوي، وسيدي إبراهيم فيأتي من عزب الخط كله خلقٌ كثير يحطون رحالهم حولك ليالٍ يذكرون الله، و يتذاكرون حكاياتك العجيبة.

الشبان الذين سافروا إلى الصحارى البعيدة عادوا وعلى وجوههم لحى ثقيلة، وفي عيونهم قسوة، وفي قلوبهم عنك إعراضٌ، ولأول مرة في تاريخ العزبة تُذكرين في بعض جنباتها بسوء.. تكلموا بالسوءِ عنك لم يطرف لهم جفنٌ، ولم يخافوا من شلل أو حريق أو موت شنيع.

الشيخ سالم ذهب يعظهم، وينذرهم فاتهموه بالكفر والعياذ بالله، وحذروه بصاعقة كالتي أحرقت ثمود.. ولما تجمعوا يوما أمامك كانوا قد جاءوا بمعاول بنية قطعك لولا عجائز العزبة..

المرأةُ العجوز جاوزت جمعَ النساء المحتميات بالشجرة الحاميات لها وتوجهت إلى أكثر الشباب حماسا.. رفعت يدها وصفعته بقوة أمام الناس

- ارجع يا بن الملاعين

فطأطأ رأسه، وغمغم

- حاضر يامه

ساعتها كان الشيخ سالم يحوقل مستعيذا بالله من شر مستطير.. يتمتم بآياتٍ، ويردد أدعية كأنه يصرفُ مردة الجن..

يومها انصرف الجمعُ، ولكن ما حدث كان أول النذر، ولأن المال يصنع ما لا تقدر عليه المعاول فقد استعمل الرجال القساة ما عادوا به من أموال ليمتلكوا الأرض التي تقومين عليها.. قبض العمدة مبلغا كبيرا ليقنع صاحب الأرض فقبل خوفا من طعنة خنجر فى ليلة مظلمة، وطمعا في ثمنٍ يبلغ ثلاثة أضعاف الثمن الحقيقي.. القساة هذه المرة أحكموا الخطة فاستبدلوا بالمعاول البلدوزر الضخم.. كان جمعهم هذه المرة أكبر، وكان هجومهم مفاجئا صنعوا حولك سياجا من الجنازير لا يخترقه رجل ولا امرأة ولا طفل .. هرع الناس إلى الشيخ سالم في خلوته البعيدة يستنجدون به فطأطأ رأسه، وقال للشجرة رب يحميها.. اقترب البلدوزر منك هادرا مزمجرا.. آلاف العصافير انطلقت من ثناياك.. سحابةُ الأجنحة الصغيرة حجبت ضوء الشمس.. ولولت النسوة وعلا صراخهن.. بكى الأطفال حتى في البيوت البعيدة.. وفي اللحظة المقدورة هوى الجرافُ على جذعك الضخم بيد من حديد..

ثلاثةُ أيام سود مرت على القرية .. اختفى الشيخ سالم.. لم يجدوا فى خلوته إلا بساطه المهترىء، وقلة فارغة.. الأمهاتُ منعن أطفالهن من الخروج، والرجالُ بقوا فى الدور لا يخرجون للعمل.. نصف الحوامل سقط حملهن.. مات أكبر أربعة شيوخ سنا.. عصبُ الرجال ارتخى ثلاث ليال متوالية.. سرت الفرة في الدجاج في العشش، وفوق السطوح، وتعفن السمك فى السوق.. ابن العمدة البكر خرج إلى شوارع القرية يجوبها زاعقا بغناء غامض، ويتبول على الجدران.. كبست الشرطة العزبةَ مرتين طلبا لهاربين..

كانوا قد ألقوك في العراء قريبا من موضعك القديم.. ذهبوا فرحين يخططون لإقامة بناء مكانك حتى يطمسوا حرمك.. ولما عادوا بعد الليالي الثلاث لم يجدوا لك أثرا.. لقد تسلل أهالي العزبة ليلا إلى حيث ألقوك إلى مثواك الذي لم يكن الأخير، اقتطع كل منهم جزءا.. ذهب يحمله إلى بيته بإجلال.. زرع الرجالُ أغصانك في باحات البيوت، ونواصي الطرقات، وزرع النساءُ أعوادك فوق الأسطح، وفى المناور، ورغم أن البلدة صارت كفرا لأشجار كثيرة لا تحصى إلا أن اسمها ظل كما هو كفر الشجرة ..

انفجار إطار امامى

انفجر الإطار الأمامي للشاحنة الكبيرة فدارت بنزق ثلاث دورات حتى سكنت على جانبها الأيمن بعرض الطريق.. خبط الضابط ياسر بقبضته تابلوه البوكس غاضبا.. تلقى إشارة من المخبر منذ نصف ساعة فقط فتحرك على أثرها.. هبط الضابط من السيارة يستطلع ما حدث.. تيقن باستحالة الوصول.. سب محروس في سره، وسب أباه.. كان محروس هاربا من جملة أحكام .. فشلت المباحث في العثور عليه لمدة عامين وكانت هذه هي انسب الفرص المتاحة.. محروس في زيارة قصيرة لأمه، ولا يعلم أحد – و لا حتى الضابط ياسر– أنه ذهب ليودعها قبل سفره إلى ليبيا..

مدام رانيا خلعت نظارتها الشمسية الكبيرة، وألقتها على المقعد المجاور.. نظرت إلى قائد السيارة المجاورة نظرة استفهام .. قال لها إنه حادث أغلق الطريق تماما.. رانيا وضعت يدها على فمها كأنها تدارى صرخة.. إنه موعدها الذي تنتظره منذ أسبوع .. مقابلة عمل .. قدمت عبر الصحيفة للعمل كمديرة علاقات عامة في الفندق الشهير.. حدد لها موعد أول أمس، واعتذرت عنه بسبب أزمة السكر التي داهمت أمها فجأة.. لن يكون مقنعا الاعتذار بصعوبة المواصلات في هذا الموقف.. رانيا فقدت وظيفتها منذ ستة شهور، ولم تصدق نفسها حين اتصلت بها إدارة الفندق لتحديد موعد المقابلة..

الصحفي مجدي قضم حواف شاربه وهو يتلفت بحثا عن مسار يمكن العبور منه.. موعد تسليم مقاله بعد ساعة.. الدكتور فخري فك رابطة عنقه.. تبخر صبره المعتاد.. تخيل الارتباك في مستشفاه وسعاد الحامل في توأمين تصرخ من آلام الطلق في انتظار وصوله.. لن يستطيع أحد من الأطباء الصغار شغل مكانه خاصة وائل ذلك الفاشل اللحوح الذي يظن أنه يوما ما سيصبح ناجحا..

الضابط ياسر أجرى اتصالات عديدة واقفا أمام البوكس.. اتصل برئيسه في العمل وبالمخبر و بالنجدة وبالإسعاف.. مدام رانيا قدرت أن الصدق في مثل هذه الأمور أفضل الحلول.. اتصلت بمستر عزت لتعتذر عن تأخرها.. طعمت كل جملة باعتذار مؤثر.. الصحفي مجدي اتصل برئيس التحرير.. والدكتور فخري بالمستشفى ..

متأخرا جاء الإسعاف والنجدة، وبصعوبة شقا الطريق المزدحم.. الإصابات كثيرة لكنها طفيفة.. والوفاة حالتان.. الأستاذ منصور الذي كان على وشك إنهاء رسالة الماجستير في أثر مدرسة الديوان في الشعر العربي المعاصر.. والحاج سعيد صاحب مصنع حلويات الأنوار..

رسالة ماجستير الأستاذ منصور سيسرقها زميل له لا يعرفه ولم يقابله يوما.. أما الحاج سعيد فسيحزن عليه ابنه الأكبر ثم يتفرغ للمصنع فيوسع نشاطه استعدادا للتصدير.. ولن يحزن عليه ابنه الأصغر كثيرا لأنه كان يعرف أن الحاج كان على وشك الزواج من بنت من عمر أولاده الأمر الذي يهدد مستقبل الميراث..

فيما كان المسعفون يحملون الجثتين إلى السيارة كان محروس قد غادر بيت أمه، واتخذ طريق هروبه الذي سيكون موفقا.. وكان مستر عزت يشطب بقلم أحمر اسم رانيا من كشف طويل أمامه.. رئيس التحرير كان قد دفع بمقال إضافي له عوضا عن مقال الصحفي مجدي.. دخلت الجثتان السيارة، وأغلقت عليهما.. رن هاتف الدكتور فخري .. كانت الممرضة تطمئنه.. فقد قام الدكتور الشاب وائل بإجراء الولادة القيصرية بنجاح .. أكدت له أن سعاد بخير فيما كان صوت الوليدين واضحا تماما فى أذن الدكتور.. كانا يضجان ببكاء عصبي حاد..

يوم سعيـــد

فى يوم معتاد جدًا استيقظ (سعيد) قبيل موعده على ضوضاء العصافير.. نهض ممتعضا ككل يوم.. يتعجب من الذين يعتبرون زقزقتها شيئا رقيقا.. أمام بيته شجرة كبيرة تستوطنها قبيلة من العصافير تضج قبل الفجر بضوضاء غير مبررة.. أصواتها حادة مبتورة متداخلة فى فوضى.. تخبط فى طريقه إلى الحمام.. مسح وجهه بالماء فصدمته برودته.. حاول خلط الماء الساخن بالبارد.. ظل أبرد مما يريد.. يئس فاستسلم، وغسل وجهه على عجل.. عاد إلى غرفته يرتدى قميصه الأزرق.. يتساءل تساؤله اليومى عن جدوى تبكير مواعيد العمل إلى هذه الدرجة، وتحرج كالمعتاد من التفكير فى جدوى العمل ذاته.. أكمل هندامه.. وقف أمام المرآة يمشط شعره.. آآآآه.. الزر الثالث فى القميص مقطوع.. خلعه متعجلا.. التقط القميص الأسود.. تأكد من سلامة أزراره قبل ارتدائه.. التقط حقيبته، نظر فى الساعة وهو ينطلق خارجا من البيت.

وصل موقف السيارات فوجده شديد الازدحام.. عشرات من الطلبة بأجسام نحيفة وشعور لامعة وبنطلونات ساقطة أسفل الخصور، وفتيات كلهن محجبات ومنهن من يرتدين الجينز.. بين الوقوف موظفون شبان، وكهول، ونسوة ريفيات يحملن سلالا مكتظة.. انتظر قرابة نصف ساعة حتى هل ميكروباس تويوتا يابانى فاندفع إليه.. انصهر لفيف من المنتظرين فى كتلة واحدة أمام باب

الميكروباص.. لحسن حظ (سعيد) أنه كان فى قلب الكتلة البشرية.. مدفوعا بكتف متين لشاب، وصدر كبير لامرأة، وثلاثة أياد لمجهولين وجد نفسه فى أحد المقاعد.. جاهدا فتح النافذة المجاورة ليلتقط أنفاسه.. أغلق السائق الباب، وصعد إلى مقعد القيادة.. انطلق وهو يعبث بجهاز الكاسيت لتنطلق صاخبة

شارب سيجارة بنى .. حاسس ان دماغى بتاكلنى

بعض الركاب بدا شاردا كأنه لا يسمع شيئا، والبعض تجاوب مع المطرب المخدر، وتذمر آخرون وطلبوا من السائق خفض الصوت.. الشاب المجاور لسعيد يلبس طاقية وجلبابا قصيرا أخرج مصحفا وراح يقرأ بصوت خفيض لكنه واضح

ولمن خاف مقام ربه جنتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان.

أخيرا وصل (سعيد) إلى الشركة.. كل صباح بصم بصمة الحضور قبل الموعد المحدد بدقيقة واحدة.. علم أنه تقرر اليوم عقد اجتماع.. زم شفتيه وقطب.. اجتماع أسبوعى، وآخر شهرى وثالث طارىء.. الاجتماعات فى الشركة تستغرق وقتا أكثر من وقت العمل ذاته، وفى كل اجتماع خطط وأهداف ومناقشات وتحليلات وتقييمات لما تم إقراره فى الاجتماع السابق الذى ربما عقد منذ يومين فقط.. فى الاجتماع سأله المدير فى موضوعات ستة، وكلفه بتكليفات أربعة، ولامه على أمور ثلاثة.. انتهى يوم العمل، وانصرف محتقن الروح.. مارس كالمعتاد رحلة العودة التى تشبه رحلة الصباح.. فقط كان السائق هذ المرة أكثر طيشا فلم ينتبه إلى المطب الرابع قبيل المنعطف

الثانى فأكله.. ارتج الركاب، وارتطم رأس (سعيد) بسقف السيارة فأحس بألم حارق.. صاح بعضهم فى السائق الذى احتج عليهم بأنه مطب جديد لم يكن موجودا فى الصباح ..

أخيرا وصل الى البيت تناول طعامه، واستلقى محاولا النوم فلم يتأت له.. أعد شايا، وجلس أمام التلفزيون يدخن.. تنقل بين القنوات.. مسلسل تركى مدبلج يعاد للمرة الثالثة.. داعية يشرح حكم الشرع فى تنميق حواجب المرأة.. تقرير عن أداء مجلس الشعب فى دورته الحالية..مطربة تغنى همسا مستلقية فى فراش وردى.. أغلق التلفزيون وطوح بالريموت بعيدا.. اتصل بأصدقائه.. أسامة الذى يكافح منذ خمس سنوات ليهاجر إلى كندا.. عمرو الذى يقضى إجازة قصيرة يعود بعدها الى الخليج.. خالد الذى نقل إقامته الى القاهرة ليتسنى له الاختلاط بمثقفى العاصمة، ويحلم بنشر ديوانه الوحيد (أرجوحة قد لا تتسع الا لفرد واحد).. وجد الجميع مشغولا فى ظروف مختلفة.

اختنق بالملل.. خرج إلى الشرفة.. كان الجو شديد البرودة.. تذكر أيام الصيف حين تحولت الأرض إلى جحيم من الصهد والرطوبه والعرق، وبدا الصيف أيامها كأنه قد ألغى الفصول واحتل السنة كلها.. اختلج من لسعة البرد فانسحب الى الداخل.. لا شيء مناسب.. طقس الأرض كلها ليس مناسبا لحياة الإنسان.. نبض رأسه بالألم مكان صدمة السيارة.. تحسسه متوجعا.. ارتمى على مقعد قريب يجمع بين عصافير الصباح، وموقف السيارات، والمطب

الجديد، واجتماعات العمل، وكندا ، والخليج ، والشتاء، والصيف فى لعنةٍ واحدة ..

تجوال ليلى

في المساءات المطيرة يهوى التجوال في الطرقات.. يفتح خياشيمه لتعبق برائحة المطر.. يتأمل الشوارع المغسولة.. إضاءات المصابيح تنعكس على الأسفلت المبلل.. الرذاذ يبلل شعره وهو يمعن فى التجوال بغير هدف.. ينظر إلى المحتمين من المطر بغير اكتراث.. يود لو تظل تمطر إلى الأبد.. لو يظل يمرح فى تلك المساحة من التلذذ والخوف بداخله.. مساحة تنبثق دائما فى أوقات المطر لا يعرف لها تفسيرا، ولا يهتم بأن يعرف..

تمرق إلى جواره سيارة تصيبه برش خفيف.. يلاحق صاحبها بلعن أمه، ولعن الذي علمه قيادة السيارات فى يوم واحد.. ينحرف إلى اليمين تلقائيا.. طريق المقهى.. لم يقرر الذهاب إليه لكن مادامت قدماه قررتا فلا بأس.. تحسس جيبه.. اطمأن.. معه ما يكفى لكوب شاي، وحجرين، وسيجارة صاروخية متقنة الحشو.. وجد المقهى كما توقع.. الرصيف الفسيح خال.. المقاعد ملمومة متداخلة على شكل عمود.. الأبواب مواربة ينسرب منها ضوء يلتمع على مياه الحفر أمام الرصيف.. دلف إلى الداخل.. تلقفه الدفء المعهود، والدخان، وأصوات كركرة الشيش، وصياح العاكفين على الدومينو والطاولة..

دار برأسه.. لم يجد أحدا من أصدقائه.. ما كاد يجلس حتى اقتحمه الملل.. شربه فى الشاى.. ملأ رئتيه مع دخان الشيشة.. أشار إلى صبى المقهى فأسرع اليه مبتسما.. همس فى أذنه

سيجارة تظبط الدماغ

والله ما معايا يا ريس، انته جاى متأخر الليلة

دور فى جيوبك كده يا واد

آخر سيجارة لسه واخدها زبون على دخلتك والله ..

اختلط الكدر بالملل فى صدره، وطفا الامتعاض على وجهه

خرج من المقهى بغير هدف.. كان المطر يتزايد.. فكر فى مواصلة تجواله لكن المطر الغزير أطفأ فكرته.. اقتحمت نوال ذهنه.. قرر الذهاب اليها.. الطريق طويل والمطر يتزايد لكن فكرته لم تنطفئ هذه المرة وازدادت توهجا.. لم يرها منذ أسبوع.. بل منذ ثمانية أيام.. ابتسم وهو يتذكر آخر لقاء.. نارية هى لا تشبع.. سيقضى الليلة الباردة فى دفء أحضانها، وسيضحكان معا من غرابة الزمن الذي جعل لها زوجا أهلكته أعوامه السبعون.. تمنى لو كانت نوال زوجته.. لو لم يكن لها هذا العدد من الأبناء لعرض عليها الزواج.. كانت ستوافق حتما وتطلب الطلاق من زوجها الهرم.. لكن هل كان يقبل أن يتزوج عاهرة؟.. لم يكن ليقبل، ولم يكن ليثق فيها لحظة واحدة.. أحكم ياقة معطفه حول عنقه.. حاول طرد هذه الأفكار التى لا طائل منها فلم يفلح .. لابد لنوال مما هى فيه.. تزوجت فى زهرة صباها رجلا فى الستين من عمره فلما زهزه شبابها كانت رجل الرجل والقبر.. أنجبت أربعة أفواه صارت هى المسئولة عن إطعامها منذ سنوات.. كان عليها أن تلتقط رزقها فى غفلة من زوجها أو

تغافل.. أخيرا ظهر بيت نوال ليقطع هذه الأفكار السمجة.. ما إن طالع الجدار المتشقق والباب الخشبي المتهالك حتى تسارعت دقات قلبه وسرى الدفء فى أطرافه، وبرقت فى ذهنه كل الأعذار المكررة فيما لو فتح له الباب زوجها.. بيد متلهفة طرق الباب.. فتح له طفل

- أمك فين يا واد ؟

- دى خرجت بره من العشا يا عم صبري

برطم

- ليلة باينة من أولها

أدبر وقد احتقن وجهه بكدر جديد..ابنة الكلب لا تضيع وقتا لابد أنها تسترزق هنا أو هناك..

الرفاق تبخروا، والظروف ضنت بثمن يعدل المزاج؛ حتى نوال ابتلعها الليل.. تواردت على رأسه أفكار شتى .. علقة حامية من أمه في طفولته حين سرق تفاحة من بيت الجيران.. عشرة طاولة كسبها بالأمس من صديق محترف.. أثر جرح قديم فى إبهام كفه الأيسر.. عمله فى ورشة سيارات فى سن السادسة.. وجه زوج أمه الغاضب دائما.. سنوات العمل فى العراق.. ضاق بأفكاره.. لا سيجارة تزيح الوساوس.. ولا نوال تريح نفسه القلقة..

تنبه إلى أنه يسير بمحاذاة الجدران خشية المطر.. رمق السماء.. كان المطر قد هدأ وعاد رذاذا، والأرض قد شبعت وامتلأت عيونها بالرضا.. اندفع إلى وسط الطريق الغارق لا يبالى بالرذاذ والبرد.. قرر

التجوال فى المدينة بلا هدف لكنه كان يشعر مسبقا أنه بالصدفة سيجد نفسه أمام بيته..

هروب

على حافة الرابعة عصرا يكون في حال أشبه بالانسلاخ.. يغلق أدراج مكتبه، وفايلات الإكسيل.. يرد على زملائه باقتضاب.. ينظر إلى ساعته يتابع ثوانيها.. قبيل الموعد بدقيقتين يحمل حقيبته يغادر إلى حيث يضع بصمة الانصراف.. يستنشق أول نفس خارج المؤسسة كل يوم كأنه نفس الحياة الأول إلا أنه لا بكاء فيه.. يطرح في كل خطوة هما من هموم عمله.. ثرثرات الموظفات، وشايات المتملقين، تسلط رؤسائه، صفحات مكتظة بمعادلات حسابية، مراسلات قريبة، وأخرى بعيدة، ومهام كثيرة كلها عاجلة..

ما إن يصل الى غرفته حتى يكون قد تخلص تماما من ذكريات النهار.. يشغل الكمبيوتر قبل أن يبدل ملابسه.. يغلق دولابه جيدا على ملابس النهار وحقيبة العمل.. يرفع صوت الجهاز ليصله صوت موسيقى إنيجما وهو يتناول غذاءه في الصالة .. تنتهز أمه الفرصة فتجلس إلى جواره تحادثه في أمور كثيرة.. تسأله عن أحوال الشغل.. تدعو له بالعثور على بنت الحلال.. تتمنى ككل يوم رؤية أطفال له قبل أن تموت.. تعلم طقوسه اليومية جيدا.. فلن يخرج كالعادة من غرفته إلا صباح اليوم التالي..

غرفته فى أقصى الطابق العلوي معزولة عن البيت.. يتمنى لو كانت معزولة عن العا لم.. يغلق بابها يخلع ملابسه كلها.. يقف وسط الغرفة يهتز متجاوبا مع الأغنية

I want to cry....

يشعل سيجارة.. يفتح صندوق رسائله.. يحذف تسع رسائل، ويفتح اثنتين.. يتقافز بين المواقع مدونة ظهرت حديثا.. موقع تدوين أغان أجنبية.. مواقع بورنو.. موسيقى ميتال.. ساعتان ثم تنساب موسيقى بحيرة البجع صافية رائقة تبخر هواء الغرفة مما علق به من صخب الميتال المجنون.. يرتدى ملابسه.. يجلس أمام الشاشة.. لوحات بوريس ودالى تتابع تلقائيا على الشاشة تنبثق كأنما من الغيب.. يتابعها مشدوها للمرة الألف وهو يرشف النسكافيه..

يرى اللوحات من داخلها كأنه موجود وسط أبعادها الثلاثية لذلك يراها كل مرة بعين جديدة، وتتبدى له من زوايا لا نهاية لها.. تناديه أمه تسأله إن كان يحتاج شيئا قبل ذهابها للنوم .. لا شيء إلا كوب نسكافيه آخر.. تعده وتطفئ التلفزيون وتذهب.. يطفئ إضاءة غرفته كالمعتاد.. يترك الأباجورة الموجهة إلى الحائط تفرش نورها عليه في شكل بيضاوي.. يفتح أبواب الفيس بوك وتويتر وغرف الشات وصفحات شرقية وأخرى غربية.. يفرك التبغ على ورقة بفرة و يلف سيجارة.. كان جاكسون يتراقص على مسرح كبير، وثلاث رسائل تصل إليه في نفس الوقت.. خدر خفيف فى فروة رأسه بينما جاكسون ينتهى من عرضه ..

انطوى النهار أمامه تبدد غبار الشوارع.. تلاشى صخب السيارات والمارة..غرق مبنى العمل فى كثبان رملية عظيمة.. انطوى الكون كله خارج الغرفة فلم يعد شيئا.. وانبثق الجمال من كل

الأشياء.. من شاشة الكمبيوتر المتوهجة.. من بيضة النور على الحائط كأنها طاقة القدر.. من شكل القلب الدامي بسهم كيوبيد على كوب النسكافيه..

موسيقى شهرزاد تنسال كحلم سماوي وشعور بالاطمئنان والأمل في أن يستمر الليل إلى الأبد..

جدايل نجلا

1

حين لم تعد القراريط المتبقية من الأرض تفي بحاجات البيت والعيال باع الرجل ذهب امرأته وسافر إلى بلاد الغربة ليحمل الحجارة ويبنى فى الصحارى مدنا باهتة..

2

ظلت نجلا وحيدة بأطفال أربعة ترعاهن، وترعى الدجاج فوق سطح البيت.. نجلا عفية كفرس، طويلة كرمح ، مشرقة كشمس، ولها جديلتان تبلغان خصرها.. ما إن سافر الرجل حتى بحلقت فيها عيون كانت من قبل لا ترفع فى وجهها استحياء، وعلى بابها المغلق كثر الطارقون.. جار يسأل عن أحوال العيال باهتمام مصطنع، وآخر عن أحوالها بتودد، وثالث يفتح محفظته يعرض المساعدة، وفى العيون كلها علامات تعرفها نجلا.. الجارات لم يعدن ينادين عليها حين تمر على أبوابهن المفتوحة، ولم يعدن يرسلن إليها فى طلب شوية ملح أو سكر.. أغلقت نجلا أزرار ثوبها العلوية فانحبك الثوب على صدرها الثرى.. لفت رأسها بطرحة سوداء فانفلتت منها جديلتاها كنهرين على ظهرها.. لم تعد تفتح بابها إلا مواربة لكن الأيدي الطارقة كانت تزداد يوما بعد يوم..

3

حين أنكرت أعز صديقاتها وجودها تهربا منها اشتد عليها الحال.. ذهبت حتى أنها بكت فى طريق عودتها، واحتقن وجهها بحمرة رائعة.. مسحت دموعها وظلت حمرة وجهها متألقة.. أسرعت فى خطوها فاهتزت جديلتاها على ظهرها.. شابان فى الطريق تغزلا فى الجديلتين وآخرعلى الناصية.. حتى الشيخ الذي ناهز السبعين الخارج من الزاوية توا قال بصوت خفيض..

- يا صلاة النبي..

بدا الطريق إلى البيت طويلا وكأن البيت رحل بعيدا هو الآخر كما رحل الرجل..

4

فى الليالي التالية كانت نجلا تخلو إلى نفسها بعد نوم العيال تفرد جدائلها أمام المرآة فتتبدى كعروس البحر تمشط شعرها ببطء ثم تضفره ثانية بعناية.. ترفع طرفي ضفيرتيها تضعهما على شفتها العليا يبدوان كشارب ملكي مرفوع.. تستخدم طرفا واحدا كشارب خطى مقوس .. تظل أمام المرآة تشكل شوارب عدة، العريض والغزير والنحيف والمعقوف والمتدلي.. صارت اللعبة هواية ليلية دائمة تلعبها أمام المرآة فتضحك لمناظرها الغريبة ضحكات حزينة.. بدأت تجرب ثياب زوجها وهى تغير شواربها.. كانت أضيق قليلا من ثيابها إلا أنها

شعرت فيها براحة عجيبة.. يوما بعد يوم بدأ صدرها يطامن من شموخه.. خفتت زعقات الأنوثة فى استدارات جسدها.. عقفت جديلتيها تحت الطرحة التي أحكمتها فأشبهت عمامة، ولم تنتبه لصوتها الذي جدت عليه خشونة طارئة، لكنها لاحظت أن بابها لم يعد مقصدا لأياد طارقة، وأن جاراتها عدن لزيارتها كما كن يفعلن من قبل..

الكرسيولوجى

-1-

يغرم بعض الناس بالصيد فيقضون الساعات شاخصين إلى الفراغ منتظرين ارتجافة السنارة بذعر سمكة التقمت الطعم، ويدمن آخرون جمع الطوابع من كل نوع ولا يقدرغيرهم فرحتهم بالوقوع على طابع نادر يحمل صورة باهتة لملك قديم..

من هذا النوع من الناس كان صاحبنا؛ لكن هوايته كانت أغرب وأندر.. هو مغرم بالكراسى يتتبع طرزها، ويقتنى آخر ما وصلت إليه أذواقها مهما كان سعرها.. تنامت هوايته وتحولت إلى شغف عجيب..

-2-

مع الزمن صار خبيرا بالأنواع والأشكال والخامات فلم يعد يرى كرسيا إلا وحدد مكان صنعه، وأماكن بيعه، وسعره الحقيقى، وخاماته المستورد منها والمحلى.. كان لا يعشق إلا الكراسى الخشبية، ويستطيع بيسر تحديد نوع خشبها ، فإذا كان من السدر الجبلى أو السنديان فإن أساريره تنفرج فى حبور، وكذلك إذا كان من خشب الزان خاصة إذا كان من الزان الرومانى لأنه أفضل – كما يؤكد دائما – من الزان الأمريكى والروسى والتركى؛ أما اذا كان الكرسى من الخشب الماهوجنى فإن وجهه لا يحمل تعبيرا .. أحيانا يعاين كرسيا فيمتعض وينقبض وجهه رافضا أى خشب صنوبر، وكان مدهشا حين نقر مرة

على ظهر أحد الكراسى وسمعناه يقول.. واوا.. رأى دهشتنا فراح يشرح لنا أن خشب الواوا خشب صينى ردىء ويحتاج دائما الى معالجات كيميائية ليبدو براقا متماسكا للعين غير الخبيرة .. فأما إذا كان الكرسى معدنيا فإنه لا ينظر اليه مطلقا، ويؤكد أنه لا يتفهم أى ذائقة مضطربة تحفل بكرسى معدنى أو بلاستيكى ويؤكد أنه حتى فى المصيف يصطحب معه كرسيا خشبيا بسيطا لجلسة البحر المحببة..

مع ذيوع شهرته فى مبنى الوزارة اعتاد السيد رئيس مكتب الوزير على استدعائه كلما أرادوا تغيير ديكور مكتب سيادته فيوكل صاحبنا رئاسة القسم إلى مساعده بالإنابة، وينهمك أسبوعا أو أسبوعين فى تفقد معارض الأثاث الكبرى والكشف بنفسه عن نوعيات الكراسى الخشبية، ومعاينة طرزها الكلاسكية والمودرن، وما جد منها فى السوق المحلى وما استحدث منها فى الخارج.. وفى كل مرة ينتهى من مهمته محملا بشكر السيد الوزير نفسه على لسان مدير مكتبه الذى سأله مرة عن سر هوايته الغريبة فأجاب مبتسما وهو يطأطىء رأسه ويضم كفيه على صدره

- ده علم كامل نتيجة خبرة طويلة سعادتك يا افندم ..

شاعت فى اليوم التالى إجابته الطريفة فصار الموظفون يرددون همسا

(كرسيولوجى).. كلما شاهدوه يدخل مكتبه أو جاءت سيرته فى حديث..

-3-

لم يمر وقت طويل حتى جلس على أكبر كرسي في إحدى الوزارات.. أيقن الجميع أن الأمر لم يكن مجرد عبث أو دعابة، وأن علم الكرسيولوجى لا يقتصر على أنواع الكراسي الخشبية وأشكالها؛ وإنما يشكل الوصول إليها بابا عظيما من أبوابه.. انتبهوا إلى طريقة معاملته التى كانت تختلف مع أصحاب الكراسى وفق مراتب كراسيهم .. انحناءة رأس تكفى أمام بعض المدراء لكنها تصبح انحناءة ظهر أمام الأعلى فالأعلى، وابتسامة لطيفة فى وجه البعض تصبح احتفاء متوهجا أمام آخرين.. كل إشارة ولفتة وكلمة كانت بمقدار معلوم حسب موقع الكرسى.. من يومها بدأ كثير من الموظفين مراجعة نظرتهم لما قد يكون بالفعل كرسيولوجى..

-4-

وككل من جلسوا قبله على ذلك الكرسى كان لابد أن يأتي اليوم الذي يداهمه فيه نبأ عزله .. ساعتها كان يجلس على كرسيه الفخم المصنوع من أثمن أنواع الخشب الزان بطراز كلاسيكى بهى تنمق أذرعه زخارف فرنسية وتشمخ قوائمه كأعمدة يونانية.. سقطت سماعة الهاتف من يده.. لم يستطع النهوض.. شباب الموظفين حاولوا مساعدته على النهوض فلم يفلحوا.. ما إن ترتفع مقعدته عن الكرسي سنتيمترات حتى ينهار جسمه الضخم ثانية.. نضح جبينه عرقا وتسارعت أنفاسه .. أخيرا جاءت لأحدهم فكرة انتحى

بزملائه يهمس بها.. لن ننسى أبدا ملامح الرعب على وجه عاشق الكراسي وهو يراهم يفتحون باب المكتب على مصراعيه ويدخلون باتجاهه دافعين أمامهم كرسيا معدنيا كبير العجلات..

أيقونة للفرح

كان يوما حارًا فى منتصف أغسطس حين انتهى فريق التصوير من إنهاء آخر مشاهد الفيلم.. انهمك المصورون فى التقاط الصور التذكارية.. البطل مع البطلة ، الأبطال مع المخرج و المنتج ، كاست التصوير، السيناريست والمونتير مع البطلة .. انتبه مساعد المصور إلى الفتاة الجالسة بعيدا.. كانت ممثلة ناشئة تلعب دورا صغيرا فى الفيلم إلا أنه أول أدوارها.. كانت شاردة ببصرها تجاه البحر.. دعاها لالتقاط صورة فتبخر شرودها ونهضت كعصفورة تبتسم للكاميرا.. جعلها تقف وظهرها للبحر..

واحد.. اتنين.. تلاته

والتقط الصورة الوحيدة يومها للنجمة الجديدة.. صورة لها منفردة يترامى خلفها بحر اسكندرية رحبا.. حملت ملامحها جاذبية غامضة لعلها ستكون سر تفردها بعرش السينما لسنوات قادمة.. ابتسامة واسعة كأنها تحتفى بالعالم.. لا تقتصر على انفراجة شفتين بل تشع من جبين لم يسطر عليه الزمن بعد.. تنسكب من العينين حبا أو امتنانا أو شجنا أو وعدا بمجهول.. تزدهر على خدين متوردين فى صورة أبيض و أسود .. الوجه الدائرى كثمرة تفاح يشع ببهجة وصوت ارهاصات ضحكة مميزة ينسرب من جوانب الصورة.. سبقت مجموعة الصور فريق العمل إلى القاهرة لتتلقفها مطابع الصحف.. أكبر الصحف نشرت صورة للمخرج على يمين الصفحة و صورتين

للبطلة الممتلئة على يسار الصفحة بينما أفردت وسط الصفحة كله لصورة الوجه الجديد الصاعد ربما لفت نظر المحرر الألوان المنسابة من صورة أبيض وأسود أو ربما صوت الضحكة المنسربة من أطرافها..

****

عادت من الاسكندرية لتجد فى انتظارها عالما جدبدا.. عروض أدوار بطولات تنهمر يوميا.. فلاشات المصورين تلاحقها فى النادى والاستوديو وعلى عتبات بيت أمها.. انبسط العالم أمامها مرحبا وطرحت العيون محبة.. توالت الأفلام وتكاثرت الصور التى صارت كلها ملونة.. على غلاف (الكواكب) هى فلاحة يميل قوامها بدلال تحمل القلة بيد وتعابث ضفيرتها الطويلة بالأخرى وعلى ثوبها الفضفاض ورود وحدائق وحقول، وفى قلب (النجوم) هى خواجاية تضج الشقاوة فى عينيها تحت البرنيطة وتستحلب شفتاها دخان سيجارة طويلة، وفى (الأنوار) ينفرج جيب ثوبها ليتنفس صدرها المكتنز وهى ترنو بنظرة داعية.. عشرات.. مئات الصورالملونة.. طفلة وناضجة، خادمة وسيدة ، وفية وخائنة ، شريفة وعاهرة . مثقفة وجاهلة.. لا يجمع بين صورها المختلفة إلا المحبة التى تلقيها عيناها فى القلوب وبذرة حزن فى الغور الأقصى من نظرتها.. حزن بأسى.. حزن بشجن.. حزن من أمر مضى أو أمر سيأتى.. يصعب تحديد ذلك لكنه يظل ماثلا كخلفية فى نظرتها رغم ابتسامتها الساطعة المشبعة بفرح يبدو حقيقيا

وفيما كانت الصحف تدعوها نجمة النجوم وفينوس الجديدة كان المنتج المخضرم يسميها أيقونة الربح.. أطلق عليها هذا الاسم حين لامه صديقه على العقد الباذخ الذى وقعه معها بأجر خيالى

– طالما هى أيقونة ربح زى ما بتقول .. ليه ما خليتش العقد عشرين سنة أو مدى الحياة

قطب المنتج جبينه كحكيم هندى وربت على كرشه الضخم

– كفاية علينا ..

استمرت النجمة فى التوهج واستمرت بذرة الحزن فى النمو.. فى سنوات السطوع الأولى كان الحزن محاصرا فى فى ثنايا النظرة يصنع مع ابتسامة الفرح الهادرة جمالا نادرا؛ لكنه صار يتمدد عاما بعد عام حتى ملأ العينين وانسكبت منه قطرة على الابتسامة.. كانت سنوات عشر قد آذنت بالتمام حين كانت نجمات جديدات قد مزقن الغمام وابتدأن التوهج.. خفتت بروق الفلاشات عن فينوس التى لم تعد جديدة.. وانحسر طلب المنتجين مع انحسار ابتسامتها.. حزمت حقائبها ورحلت إلى بلاد يملؤها الضباب الرمادى وسريعا ما انقطعت أخبارها..

صارت أفيشات الشوارع تحمل وجوها جديدة من كل لون، وأفلام السنما تقدم كل عام حزمة جديدة من جميلات مبتسمات، واختفت من الصحف صور فينوس الجديدة، ومن شركات الانتاج صورة أيقونة الربح لكن صورة وحيدة لها ظلت تنتشر تلقائيا على

جدران المقاهى تعبيرا عن البهجة، ولافتات المحلات المضيئة كوسيلة ترحيب وانسربت إلى غرف المراهقات، وانطبعت فى خيالات الشباب، وحفرت على القلائد، ورسمت على التى شيرتات، وانطبعت وشما على أذرع شباب وصدور فتيات.. حين زارتها صديقتها الأثيرة فى أحد مصحات علاج الاكتئاب وأخبرتها أن أول صورة لها بالأبيض والأسود فى الإسكندرية صارت أيقونة فرح عند الناس كلها.. تنسمت رائحة البحر وأحست بشمس ذلك اليوم البعيد وسط ضباب الغربة.. تذكرت الصورة الأبيض والأسود التى توسطت صفحة الجريدة الشهيرة.. هل حمل وجهها بالفعل يوما كل هذه البهجة!.. ابتسمت ابتسامة تنوء بثقل الحزن لكنها تحمل بقية أخيرة من الفرح البعيد..

مرآة ومرآة

زارت صديقتها لاحظت اهمالها لمظهرها وانشغالها المرهق بالبيت والأولاد.. كانت تكوى قميص ابنها الأكبر الذى دنا موعد عودته من الكلية وتتابع ابنتها الصغرى فى عمل واجباتها المدرسية، وبين الحين والاخر تلقى نظرة على قدور الطعام فوق البوتاجاز.. قالت لها فى دهشة

ألا ينتهى شغل بيتك أبدا.. كلما زرتك وجدتك على هذا الحال.. حتى أناقتك أصبحت مشغولة عنها

ابتسمت وهزت رأسها تحسرا

– أناقتى ؟.. لن نأخذ زمننا وزمن غيرنا

امتعضت من ردها المستسلم.. رمقت مرآة على الحائط فنهضت لتطالع صورتها وتعد عبارة ثقة لتقولها فى إطار من المزاح لكنها بهتت.. كأنها ترى صورتها لأول مرة.. ما هذه الغضون على جانبى عينيها، وما هذا اللون الغامق تحتهما.. لأول مرة ترى الخطين الرأسيين حول فمها بهذا العمق.. أيكون الزمن قد أفلح فى وضع إمضائه على وجهها الجميل.. اعتراها وجوم وظلت تحادث صديقتها بذهن غائب بعد أن تشعب الكلام..

فى طريق عودتها حاولت التشاغل بمتابعة الوجوه والفاترينات والسيارات لكنها لم تفلح فى الانفلات من ربقة حزن عميق..

حاولت تناسى ما قالته صديقتها عن زمنها وزمن غيرها فراحت تقنع نفسها بخطأ كلامها لكنها لم تفلح.. وحين ضمتها جدران بيتها بدأ صوت حجتها يعلو رويدا.. صديقتها تريد أن تدمغ كل النساء بما هى فيه من شقاء، وتلصق تهمة ذبولها بالزمن البرىء ثم أنها أكبر منها بعامين كاملين، وأنجبت أربع مرات تباعا.. كان طبيعيا أن يتوه جمالها وسط زحام الحمل والولادات والانشغال.. تصاعد داخلها صوت يحثها على النظر فى المرآة.. حاولت المراوغة مترددة.. قامت تخطو نحو المرآة.. تمنت ألا تكون ظالمة كمرآة صديقتها .. أخيرا طالعت وجهها.. وجدته كأبهى ما يكون.. نعم هكذا عهدته دوما.. دققت النظر حول عينيها وتحتهما.. رضيت عن نضارتها تماما.. أفلتت من وجومها فى الحال.. أشرق وجهها بابتسامة واسعة وهى تقول لنفسها

- حيت تزورنى هنا سأعرف كيف أرد عليها.

عازف الناي

تزاوجت شفتاه بمبسم الناى.. عانقت أنامله ثقوبه.. انسابت النغمات فى سمع النسيم.. تسرب الشجن من حنايا صدره إلى الوجود.. تابعت عيناه مركبا وحيدا يتوجه فى تكاسل إلى الأفق الغربى.. كانت الشمس على وشك الرحيل ترسل نغمات تشبه نغماته شجنا.. تخيل فى فمها نايا كما نايه يدعو المركب إليه.. راح يجاوبها وهو يرمق المركب المنزلق على صفحة الماء.. انشغل به عن حمرة القرص الآخذة فى القتامة.. بدت الأجساد فى المركب شيحية المعالم ، وبدت حركاتها غير مفهومة.. تأمل الشراع باسقا فى كبرياء.. بدا له مفهوم الشكل والحركة إلى حد كبير .. ماذا لو تحكم بنغم نايه فى هذا الشراع.. لم يكن ذلك ليستحيل لو كان للشراع أذنان .. اليس الهواء هو الذى يدفعه ويوجهه ؟.. أليست كلماته مطاعه فى أذنى الشراع السابح؟ .. ما المانع من وصول نغم نايه إلى هاتين الأذنين ما دام الذى يحمله هو ذات الفم الآمر؟ ..

كانت الشمس قد صارت قاب إصبع من حافة الأفق، وكان المركب قد ابتعد عن ناظريه كثيرا فى اتجاهها.. حدس أن للشراع بالفعل أذنين سمع بهما عزف الشمس فذهب صوبها ولو سمع نداء نايه للبى.. راح يزفر فى الناى بكل قوته.. تتابعت أصابعه على الثقوب.. خرجت النغمات حادة عالية كصوت هاتف بعيد ثم

لانت بشجن عشاق يبثون الغرام ثم تنوعت مراودة واعدة راجية لكن الشراع الأصم لم يأبه، وظل فى حجه نحو عزف الشمس الطاغى..

رنا عازف الناى إلى الشراع وقد توحد بنصف القرص المنكفىء فى المدى.. لم يجد فى فمه هواءا، ولا فى صدره نغما.. ألقى الناى جانبا.. ومضى..

ما لا عين رأت

يحمل الكاميرا على صدره بحنان أنثى الكنجارو.. لا تفارقه فى عمله بالجريدة، وعلى المقهى وفى السيارة وفى نافذة البيت.. يلتقط صورة لطاقم التحرير ليلة صدور العدد الأسبوعي، وصورة لتوكتوك يحمل صورة أبو تريكة، وصورة لزميلته نهلة قبيل زفافها بلحظات، وصورة لأمه في المطبخ لحظة شهقة الملوخية المقدسة ..

انشغل عن دراسةِ الأدب الانجليزى فى فترة الجامعة بالاشتراك فى معارض التصوير والعمل فى استديوهات شهيرة بغير أجر والسعى للحصول على كاميرا أكثر حساسية عاما بعد عام. أحب شكسبير كثيرا لكن ليس معنى ذلك أنه اقبل على مسرحياته بنهم وإنما راح يلتقط صورا مختلفة لوجه شكسبير المرسوم تظهر فيها نظرات مختلفة عن تلك المرسومة، وراح يلتقط صورا للفنانين الذين يؤدون أدوار هاملت وعطيل وماكبث وديدمونة بملابسهم التاريخية حتى كون ألبوما كتب على غلافه عالم شكسبير. كان أصدقاؤه وأساتذته يحدثونه عن موهبة عارمة كلما شاهدوا صوره لكنه دائما لا يرضى عما صور ويقول إن الصورة تسجيل خاطف للحظة تستحق التسجيل وإنه لم يسجل بعد مثل تلك اللحظة..

فرح حين عمل مصورا فى جريدة صغيرة، وتذكر وهو يستلم عمله أول مرة استخدم كاميرا فى طفولته، لم تكن فى الحقيقة كاميرا ، كانت علبة بلاستيكية على شكل كاميرا ولها عدسة وزر.. يغمض عينا

ويحملق بالأخرى فى العدسة فينفصل عن العالم ليغرق فى الصورة المضيئة ، ويضغط الزر فتظهر الثانية والثالثة حتى العاشرة ثم تظهر الأولى من جديد.. قال له أبوه أن اللعبة صندوق الدنيا.. فرح باللعبة أياما ثم زهدها حين ضاق بالدنيا الصغيرة فى الصندوق وبكى وهو يطلب من أبيه كاميرا بصور لا تنتهى..

كان يحلم بمعرض غير مسبوق، وبصور مذهلة وصاعقة وخاطفة وآسرة وساحرة تشده الجمهور وتنطبع فى وجدان المتذوقين.. حلم بصورة يلتقطها لبرج ايفيل مجنحا بسحاب على شكل ريش أسطورى، وأخرى لزنجى يقبل شقراء على صدر تمثال الحرية، ولألف نوع من الشعب المرجانية فى قاع بحر يجمعها كادر واحد.. تتردد فى أذنه عبارة (ما لا عين رأت) وصفا لمعرضه الحلم.

ظل يصور ويدخر صوره كنملة دءوب.. اشتهر بعينه الحساسة وصوره البليغة حتى طلب بالاسم للعمل بإحدى الصحف الشهيرة اكتظت فى غرفته صور شتى على مدار عامين.. استطاع خلالهما عبر مأموريات الجريدة تصوير الأشجار العملاقة التى عبدها أسلاف الألمان ومسارح الرومان فى إيطاليا، وأعمدة الأكروبوليس الأثينى، وأطلال إيوان كسرى بالمدائن، وبقايا أقدم معابد الهند وتراكمت عنده مئات الوجوه الناطقة بتاريخ قرون.. وجه فلاح صعيدى نحته الصبر.. وجه رافع أثقال بلغاري تحت مائتي كيلو.. وجه باليرينا روسية فى ذروة توحدها بالموسيقى.. وجه طبيب وسط أشد لحظات الجراحة حرجا.. وجه شهيد لحظة احتضاره برصاص الخيانة..

اكتظت غرفته بصور شتى.. وسط مئات الصور كانت هناك عشرات لبرج ايفيل؛ بلا أجنحة من سحاب، ولتمثال الحرية لكنه منفرد بدون العاشقين، ولتنويعات مختلفة لشعاب مرجانية لكن كادرا لم يجمع منها ألفا أبدا فى لقطة واحدة.. دعا أستاذه إلى غرفته ليستشيره.. أبدى الفنان المخضرم إعجابه بصور المعابد والمعالم والجبال والشروق والغروب؛ لكنه توقف طويلا أمام صور الوجوه.. تأمل وجه الفلاح صعيدى.. مد يده يتحسس تجاعيد الجبين ويحدد العمامة المهوشة.. كان الفتى يحكى لأستاذه حلمه الذى لم يتحقق بالتقاط صورة لم ترها عين من قبل.. كان الأستاذ شاردا فى نظرة الفلاح حائرا فيها.. رد على الفتى قائلا

- كل صورة هى فى الحقيقة لم ترها عين من قبل

تأمل الفتى كلمات أستاذه وانتبه لإعجابه بوجه الفلاح

جلس يخطط لإقامة معرضه بما أنجز من صور.. سيحفل المعرض بصور شكسبير وأبطاله والوجوه فى شتى اللحظات إلى اليمين، وصور معالم المدن ووجوه الطبيعة إلى اليسار، وفى صدر قاعة العرض سيعلق الكاميرا التى طال تعلقها بعنقه تعلوها علبة بلاستيكية صغيرة منغلقة على عشر صور للدنيا، تخيل بعينه اللاقطة الصورة الأولى لافتتاح المعرض.. كان اسم المعرض مكتوبا على لوحة كبيرة فى المدخل.. (ما لا عين رأت)..

شجرة الانتظار

أطلقت فيرمونها فاقتحم عبقه أبواب القرية وانساب يملأ السراديب والحجرات.. خرجت أسرابهم على وجل تستطلع أمر الملكة.. انتشرت ألوفهم فوق الارض.. كانت الملكة واقفة بهدبين مرتعشين وأزيز متواصل..

- رأيته الليلة، كانت قدماه على الأرض، ورأسه يثقب السماء.. كان القمر يتوجه بدرا، والنجوم حول وجهه، تطال يده ثمار الأشجار، وتطوى خطواته المسافات البعيدة.. ليس بزاحف، ولا طائر، وليس كمثل الدب، ولا الفهد ، ولا الأسد..

تعالت أزيز الجمع، وانثالات فيرمونات منذرة بخطر فاسترسلت

- طوال الليالى الفائتة كنت أستشعر أصواتا غريبة قادمة من الجانب الآخر للغابة.. أخرج كل ليلة فأتأكد من القعقعة والحفيف والرنين والصفير، وتترامى إلى روائح غريبة لكنى لا أرى شيئا حتى كانت ليلتنا هذه.. خرجت أتسمع حتى وصلت إلى الشجرة الكبيرة فتوقفت على جذعها، وإذا به يهبط من بطن وحش حديدى.. كان الوحش يزوم، وعيناه تضيئان كشمسين، من بطنه خرج.. يمشى مشرع القامة.. جال في الغابة قليلا ثم عاد إلى بطن الوحش وانطلق به إلى البعيد..

أصغى النمل الصغير الكثير لحديث كبيرتهم.. كان صوتها كرؤيا عراف تخدش الجدار الذى يفصلهم عن الغد.. لا يعلمون منذ متى

وهم فى هذه الغابة.. شمس حارقة.. كائنات فظة لا حصر لها تسحقهم فى مجيئها وذهابها.. قوت يشح حتى المجاعة فى أوقات، ويفيض محفوفا بالخطر فى أخرى.. حشرات لا طعام لها إلا أسرابهم، وأخرى تتفقد بيضهم فتلتهمه قبل أن يفقس..

أسلاف عاشوا فى زمن غابر اهتدوا إلى أن الهلاك المحقق فى بقائهم فوق الأرض.. ورغم أن النبات يبدأ من تحت الأرض ويبزغ صاعدا طلبا للحياة فإن أسلاف النمل الحكيمة قد اتخذت الاتجاه المعاكس.. هبطت تحت وجه الأرض.. حفرت بالعناء طرقا وممرات.. صنعت بالدهاء مسارب وشبكات.. خصصت للبيض مخابىء، وللقوت مخازن.. الغرق تحت الطين ظل حتى اليوم طوق النجاة من الفناء، والغياب فى الأعماق لم يزل وسيلة الحضور.. لكن هذه المأساة التاريخية هى التى ضمنت لهم البقاء فى كوكب شهد انقراض ديناصورات عاصرها أسلافهم بالفعل.

فى البدء لم يفهموا شيئا من حديث الملكة، لكن جموعهم أخذت تتبادل الأزيز والصرير.. تسارعت ذبذبات أهدابهم الطويلة.. ما حقيقة ذلك الكائن العملاق؟ وماذا عساه يريد منهم .. لقد رأوا من نفس جنسهم نمالا أطول وأكبر لكنهم ليسوا بعظمة من تصفه الملكة.. هل يكون من نوع جديد من النمال ؟.. لكن كيف يحمل القمر فوق رأسه، وكيف يسكن بطن وحش ؟! ..

تصاعد ضجيج ألوف النمال الشغالات.. وحش جديد يضاف إلى وحوش الغابة؟.. زائر عجيب من غابة بعيدة؟.. أم واحد من أبناء

نمال عظيمة جاء لينتشلهم من مدافن خوفهم التاريخية.. هل يمكن أن يحيوا فوق وجه الارض يوما بأمان ؟..

اندفعت جماهير النمال تتسلق الشجرة العالية .. ترفع أهدابها تتسقط مويجات صوت بعيدة .. من شواشى الشجرة لاح على البعد مشهد جديد.. أضواء، وأذرع حديدية باسقة كأشجار بغير أغصان ولا أوراق.. وحوش تتحرك بعيون مضيئة.. جدار من الحجر فى طور البناء.. فوق الشجرة اندلعت أشواق النمال.. لم تكن تفاصيل المشهد واضحة، لكن نمالا رأت أشباحا عملاقة تبينت فيها رأسا وجذعا وبطنا.. ورغم أنهم رأوا كل الأشباح تتحرك على قدمين إلا أنهم ترسموا أهدابا وفقرات.. استحالت بعض الأصوات الغريبة إلى صرير يشبه صريرهم.. وصارت لبعض الروائح غير المفهومة ملامح فيرموناتهم.. نمال أخرى لم تر إلا أشباح كائنات غريبة عن الغابة وما فيها..

توزعت مشاعرهم.. نمال تبكى خوفا، وآخرى فرحا.. هل يمكن أن يحيوا فوق وجه الارض يوما.. هل تفسح لهم الضفادع و العناكب والسحالى والحشرات لهم مكانا للحياة فى نور الشمس .. هل سيأمنون على أقواتهم وبيضهم المخبأ فى جوف الارض.. هل يرتاحون من حمل الأثقال و قطع المسافات وسطوة الخوف يوما .. واذا أمكن ذلك فهل سيكون هنا فى ذات الغابة التى لا يعلمون سواها أم هناك وراء الجدار الحجرى فى مستعمرة أقاربهم الأقوياء.. لم يجد النمل الدؤوب ما يتوجب عليه فعله لكن جموعهم اتفقت على قرار جديد..

في كل ليلة سيزحف الجميع صوب الشجرة الكبيرة.. يعتلون جذعها الضخم شاخصين بأبصارهم صوب حافة الغابة باتجاه المستعمرة الجديدة ، ورغم أنهم لاحظوا ارتفاع الجدار الحجرى يوما بعد يوم ورغم أن ملكتهم لم تر الكائن الغريب مرة أخرى إلا أنهم لم يتركوا على عادتهم اليومية فى اعتلاء الشجرة كل ليلة حتى بواكير الصباح .

مذاق الماضى

-1-

دائما كنت أقول لزوجتي أنني لم أشرب منذ سنين فنجان شاي كذلك الذي كنت أشربه من يد أمي.. ودائما كانت زوجتي تغضب..

-2-

أسائل نفسي هل من المعقول ألا يوجد من بين فناجين زوجتي واحد فقط يشبه فنجان أمي، وهل عجزت جميع المقاهي عن إكساب الشاي المذاق الذي أتوق إليه.. أخيرا أقنعت نفسي أن الأمر لا يعدو الحنين لما فات، وأن للماضي مذاقا أثيرا مهما كانت حقيقته حين كان حاضرا..

-3-

هذا المساء..وفيما كنت منهمكا في القراءة وضع أمامي فنجان شاي.. بحركة آلية مددت يدي إليه.. ما إن رشفته حتى أحسست أنني وجدت شيئا طال بحثي عنه، رفعت وجهي فإذا هي ابنتي الصغيرة.. قالت وهي تعابث ضفيرتها

بالأمس تعلمت صنع الشاي يا بابا..

الذين يرثون الأرض

قطعة الأرض الفضاء الواقعة على ناصية الطريق التجاري في البلدة كانت في الماضي قصرا رائعا يزدان بأعمدة رومانية الطراز، ونوافذ كبيرة مكللة، وفراندات بديعة تحملها رءوس متوجة تشبه ملامح وجوهها الإسكندر الأكبر..كان القصر يبدو وسط حديقته الأنيقة كأنه انتقل توا من أحد أحياء روما أو أثينا إلى بلدتنا بشمال الدلتا.. بعد الثورة خلا القصر من ساكنيه البكوات ووضعت الحكومة يدها عليه ليصبح مقرا للشهر العقاري ومأمورية الضرائب..

في البداية كان الناس يلجونه برهبة خفية يطالعون تفاصيل فخامته وهم في طريقهم بين غرفه التي صارت مكاتب موظفين، وجدرانه التي اتسعت لعشرات من رفوف تحمل أكداسا من الأوراق والملفات..

القصر العريق حافظ على جماله من الخارج؛ أما داخله فقد تحول إلى خلية نحل تعج بمشترين وبائعين ومحاسبين ومحامين وتجار وسماسرة من البندر والريف .. اصطلح الناس على تسمية المكان (الضرايب).. رايح الضرايب.. جاى من الضرايب.. العنوان الفلاني بعد الضرايب شمال.. وشيئا فشيئا بدأ القصر يفقد مهابته في أعين الناس وإن حافظ على أناقته العريقة..

مرت سنوات حتى صدرت أوامر حكومية بنقل الشهر العقاري والضرائب إلى مبنى حكومي تم الانتهاء من بنائه.. أغلقت الأبواب

إلا بوابة الحديقة الحديدية التي طوقها جنزير صدئ بقفل كبير.. خصص للمبنى خفير نظامى استقر في غرفة إلى يسار البوابة.. يبدو أنها كانت فيما مضى غرفة الحارس أو الجنايني.. انعدمت الإضاءة ليلا في القصر كله إلا بصيصا خافتا ينسرب من غرفة الخفير الذي يجهز قوالح أرجيلته، ويغلى شايه الثقيل استعدادا لسهرة يفترض أن تكون حتى الصباح .. مع إغلاق البوابة الكبيرة والظلام الذي يلف القصر العالي ليلا، وفخامته التي يعتقها الزمن عاد الناس يتطلعون إلى القصر من بعيد كأنهم يرنون إلى شيء انبثق توا من ماض بعيد، وشيئا فشيئا صار الناس يسمونه باسمه القديم.. قصر الباشا.. قدام قصر الباشا.. ورا قصر الباشا.. بعد قصر الباشا..

نشأت حول القصر أساطير كثيرة.. بعضهم قال إن فيه غرفا بعدد أيام السنة.. بعضهم أضاف أن في حماماته صورا عارية لنساء إفرنجيات، وبعضهم أكد أن القصر أصبح مسكونا بأسرة من أسر الجن الأزرق لا يسمحون لأحد بدخوله..

مرت سنوات طويلة حتى استيقظ الناس ذات يوم فلم يجدو القصر.. وجدوا مكانه ركاما هائلا من أحجار وغبار وجرافات تعيث هنا وهناك.. تتشابك أسئلة الجمع؛ ومن قلب الأسئلة تخرج دوما إجابات... أولاد الباشا يا جماعه كانوا رافعين قضية على الحكومة لاسترداد الأرض.. القضية طولت في المحاكم سنين وسنين.. أولاد الباشا يا جماعه في فرنسا كلهم مبسوطين ومش محتاجين.. بالهم كان طويل لحد ما في الآخر كسبوا القضية، واستردوا القصر.. كانت إجابة

صحيحة بالفعل لكن لها بقية.. لقد باع أولاد الباشا القصر ببضعة ملايين للحاج شربينى صاحب أكبر مزارع دواجن فى الناحية، وعضو مجلس الشعب.. الحاج شربيني عضو المجلس عن الدائرة منذ أكثر من عشر سنوات.. يفوز الحاج فى الانتخابات بشعبيته الكاسحة المبنية على ثلاثة ملايين جنيه، وقيل خمسة ملايين ينفقها في حملته الانتخابية..

أهل الرأي حذروا الحاج شربيني من المساس بالقصر لأنه يعتبر من الآثار وسيدخل في مشاكل كبيرة مع مصلحة الآثار؛ لكن علاقات الرجل الواسعة و بعض أهل الخبرة نصحوه بسرعة هدم القصر، ويستحسن لو تم ذلك في ليلة واحدة.. بالفعل نفذ الحاج شربيني بجيش من البلدوزرات والجرافات .. ومع إشراقة الصباح كان قصر الباشا أثرا بعد عين.. وفي فترة وجيزة كان الحاج يلقى بأطنان الأسمنت والخرسانة ليضع أساس برجه السكنى العملاق.. تصوره مولا تجاريا ضخما يعلوه خمسة عشر طابقا..

نهضت جدران المول وبزغت أعمدة الطابق الأول فانتشى الحاج شربيني حين رأى مبناه ينهض على هذه المساحة الشاسعة من البقعة الإستراتيجية في البلدة ، والأهم من هذا أنها أرض الباشا.. شكر الحاج نعمة ربه الفائقة، وقد أحس يقينا بأنه أصبح بالفعل الباشا الحقيقي.. ذبح الحاج أمام المبنى عشر ذبائح للفقراء والمساكين، ولم ينتظر حتى يعلو المبنى فعلق لافته عملاقه بعرض الواجهة كلها مكتوب عليها بخط الثلث

(إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)..

وتحتها بخط النسخ عبارة

(ملك الحاج شربيني)...

الأستاذ شوقي المحامى المنافس الرئيس للحاج في الانتخابات، وابن تاجر إطارات السيارات الكبير اشتعل قلبه نارا حين رأى اسم الشربينى على قصر الباشا.. ألم بما حدث من مخالفات فسارع بالشكاوى إلى كل الجهات المعنية وسرعان ما نجح في استصدار حكم بوقف البناء فورا..

أيامها لم يقلق الحاج شربينى كثيرا بعد ما لجأ إلي محام شهير في القاهرة يظهر فى التلفزيون كثيرا.. طمأنه، وقال له إنها مسألة وقت بسيط، وإجراءات قانونية -هو خبير بها- ستعيد العمل إلى البناء قريبا.. كان ذلك منذ أكثر من أربع سنوات أنفق الحاج خلالها كثيرا فى الطرق القانونية وغيرها.. بدأ الحاج يتعرض لمشكلات كثيرة قد تهدد وضعه السياسي فلم يعد بحرصه السابق على إقامة برجه المأمول..

شيئا فشيئا بدأ بائعو الخضروات والفاكهة والباعة السريحة الذين يعانون من عدم وجود مستقر لهم يأوون إلى جدران المبنى .. يستقل كل منهم بمتر أو مترين يعرض فيها بضاعته بعيدا عن مطاردة المرافق أو رذالة أصحاب المحلات..

دب العمران في المكان فآوى إليه أطفال شوارع، واصطنعوا لهم غرفا من قماش، وفرشا من قش.. قسم بعضهم خلفية المبنى إلى أماكن تصلح لوقوف السيارات فاستقر بعض صبيان السمكرة والدوكو والميكانيكا على جانبي الموقف متخذين مما كان سيصبح مولا كبيرا بذور ورش صغيرة.. أطفال الشوارع بدأوا يعملون فى تنظيف السيارات.. بعضهم هوى الصنعة فصار صبيا في الورش الناشئة.. في المساحة الداخلية الفسيحة قامت نصبتان متقابلتان للشاي والقهوة تناثرت أمامهما بضعة مقاعد..

تحول المكان الي بؤرة حياة متوهجة في البلدة.. أطلق الناس عليه اسما جديدا .. فلا هو قصر الباشا، ولا هو الضرايب.. إنه (السويقة).. رايح السويقة.. جاى من السويقة.. أقابلك فى السويقة..

تختلط النداءات على الفجل الورور، والطماطم المجنونة، والعنب البناتى، ومشروبات العناب، والخروب، والسوبيا مع الدقات الرتيبة لسمكرى يستعدل رفرف سيارة، وصوت موتور مفوت يختبره الميكانيكي الناشئ.. يضج المكان بنشاط البيع والشراء والصنعة والاستصلاح.. زبائن، صنايعية، باعة، خلق من كل شكل ولون تعلو رؤوسهم جميعا ذات اللافتة التي علقها الحاج شربيني من قبل... (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)....

الفهرس



فى الليالي التالية كانت نجلا تخلو إلى نفسها بعد نوم العيال تفرد جدائلها أمام المرآة فتتبدى كعروس البحر تمشط شعرها ببطء ثم تضفره ثانية بعناية.. ترفع طرفي ضفيرتيها تضعهما على شفتها العليا يبدوان كشارب ملكي مرفوع.. تستخدم طرفا واحدا كشارب خطى مقوس تظل أمام المرآة تشكل شوارب عدة، العريض والغزير والنحيف والمعقوف والمتدلي..صارت اللعبة هواية ليلية دائمة تلعبها أمام المرآة فتضحك لمناظرها الغريبة ضحكات حزينة.. بدأت تجرب ثياب زوجها وهى تغير شواربها..كانت أضيق قليلا من ثيابها إلا أنها شعرت فيها براحة عجيبة..



